دكتور محمد عبد المنعم خفاجي

أبو الفتح الإسكندري

بطل مقامات بديع الزمان وشخصيته المجهولة

الطبعة الأولى
١٩٩٦ م - ١٤١٦ هـ

مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

أبو الفتح الاسكندرى

بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــــــــدير

أبو الفتح الاسكندرى كما يعرفه علمــاء الأدب هــو البطــل فى مقامات بديع الزمان الهمــذانى ٠

وهو يقوم بالدور الرئيسى فى الأعمال الساسانية التى احترفها ، وأجاد تمثيلها ، انه هــو بطــل الرواية وصانعها ، أما الذى روى عنه كل ما قام به من بطولات مصنوعة فهــو الحارث بن هشام ٠

واغلب الظن عند شتى الدارسين أنهما شخصيتان أسطوريتان ، ليس لهما نصيب من الواقــع التاريخى ٠

وهــذه القضية مرت عبر الأجيال دون دراسة أو تحقيق ، ومر بهــا الأدباء والباحثون المعــاصرون كذلك ، دون جــــديد ، ودون رأى قاطــع فيها ؟ وان كــان أحــد الباحثين المعاصرين قــد قارب الوصــول الى حلهــا والحكم فيها ، لكنــه ترك البــاب مفتوحاً ، وبنى آراؤه على الظــن والاحتمال ٠٠ ومن عجب أن يكــون ذلك بعـــد صـــدور كتــابى « ابو دلف عبقرى من ينبع » ممـــا يرجــح انه اطــلع عليــه ، وقــرأ ما دونتــه فيــه ٠

وفى هــذا الكتاب درست هــذه القضــية من مختلف وجوهها ، وأبديت الرأى الحاسم فيها ، وهــو ما أعتز به ، وأعتبره الحل الأول والأخير فى هــذه المشكلة التى استعصى على الأجيال حلها ٠

وبالله التوفيــق ٠٠

المؤلــف

الباب الأول

فـــن المقـــامة

الفصل الأول

فـن المقـامة فى أدبنـا

- ١ -

يقـول الشريشى فى شرحـه لمقـامات الحـريرى(١) : « المقـامات المجالس ، واحـدتها مقامة ، والحـديث يجمع لـه ويجلس لاستماعه يسمى مقامة ومجلسا ، لأن المستمعين للمحـدث ما بين قائم وجالس ، ولأن المحـدث يقوم ببعضه تارة ويجلس ببعضه أخرى ، قال الأعلم : المقامة المجلس يقوم فيه الخطيب يحض على فعـل الخير ، والبديع نفسه يبين ذلك بقوله فى المقـامة الوعظية : « قال عيسى بن هشام : فقلت لبعض الحاضرين : من هـذا ؟ فقال : شخص قـد طرأ لا أعرفه ، فاصبر عليه الى آخر مقامته ، لعـله ينبئ عن غلامته » فالمقامات جمع مقـامة ، وهى : كالمقـام ، اسـم مكان من قام بالمكان بمعنى أقام فيـه ، وعلى هـذا المعنى قـول المسيب بن علس :

وكالمســـك ترب مقـاماتهم وترب قبـــورهم أطيب

ثم توسـع فى استعمال اللفظ ، فانتقل الى الدلالة على الجماعة المقيمة بالمكان ، وبهـذا المعنى جاءت فى قول زهير بن أبى سلمى :

وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القـول والفعل

ثم انتقل مرة أخرى ليدل على الكلام الذى يلقى فى مجلس من المجالس ، كما استعملت كلمة مجلس فى هـذا المعنى أيضا ، وسمى بها الشريف المرتضى دروسه التى كان يلقيها على تلاميذه ، ودونهـا فى أماليه ، فصـولا سمى كل واحـد منها مجلسا على هـذا الاستعمال الأخير ، وعقد ابن قتيبة فى كتابه « عيون الأخبار » فصلا لكلام الزهد بين أيدى الملوك ، وجعل عنوانه : « مقامات الزهاد عند الخلفـاء والملوك » ، وقال الجاحظ فى كتابه « البخلاء » فيما قال : ويذكرون من الشعر الشاهد ، والمثل ، ومن الخبر الأيام والمقامات .

---

(١) راجع كتابى الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى - ١٩٥٦ .

هـذا هـو معنى المقـــامة اللغـوى ، أما معنـاها الفنى فهـــو هـذا الفن البليغ البديع المنمق ، الذى صيغ فى أسلوب قصصى لطيف ، ويمثل قصة وقعت لشخص أو أشخاص ، يتخيلهم الكاتب ، ويضـع على السنتهم حوارا يجتهد فيه فى التحسين والتزيين والوشى ، ويلتزم فيه السجع أو يكثر منـه ، ويودعه ما أراد لـــه ذوقـــه من طرائف ووصـف الأخـلاق وروائع وملح وبدائع ، ونقـد للأشخاص والمجتمع ، والبـلاد والنـاس ..

ولقد كان من أثر اتصال كتاب العربية بالآداب القديمة ، وتنقلهم فى أفغانستان وخراسان وبلاد فارس ، أن اتصلوا بالحياة الاجتماعية ، وخالطوا العامة من الناس ، وسمعوا شيئا من أقاصيصهم وأحاديثهم ، وعرفوا بعض الأشخاص الذين يتحدث الناس بأوصافهم وأخلاقهم ، وكان بعض هؤلاء الكتاب يجيدون اللغـة الفارسية ، وربما كانوا يعجبون بهـا وبأساليبها ، فأخـذوا فى محاكاة بعض تلك الأحوال والكتـابة على نمطها باللغـة العربيـة ، وقـد كان لأثر الحيـاة الفارسـية قبـل هـذا العصر دخـل فى لغة العرب ، بمـا كتبه ابن المقفع وسـهل بن هارون وغيرهما ، فظهر أثر ذلك فى الكتابة النثرية ، فلمـا كان هـذا العصر ظهر أسلوب المقامات المحتوى على قصص قصيرة ، يصف فيها الكاتب أحـد الناس وأخلاقه ، ويذكر بهـا بعض الحوادث والأماكن بأســلوب مسجع ظريف . وكان النثر الى هـذا العصر مقصورا على الرسائل وكتابة الدواوين والفصول الأدبية ، ولم يكن الأسلوب القصصى قـد تسرب بعـد الى الكتـابة العـربية ، فلمـا كتب بديع الزمان مقاماته ، كانت تلك المقامات نوعا جـديدا فى أساليب النثر العربى ، وسار على أسلوب الهمذانى من جاء بعـده من الكتاب أصحاب المقامات كالحـريرى وغـيره .

وواضح من المقـامات المروية عن البديع والحريرى أن الكدية (الشحاذة) أهم أغراضها ، ومن ثم قيـل عن المقامات انهـا تطلق على ما يقصه أهـل الكدية والشحاذون من الأدباء بلغـة عربية فصيحة تعـد فى أسلوبها من نماذج النثر الفنى الرفيع فى الأدب العربي .

وقد نسب الحريرى فى مقدمة مقاماته فضل ابتداع المقامات الى بديع الزمان وعلامة همذان ، ومن كتاب المقامات بعده : ابن نباته السعدى ، أبو الهيجاء الأصفهانى ، ابن الجوزى ، ابن الوردى ، الشيخ العطار ، أحمد فارس الشدياق ، اليازجى ، وعبد الله فكرى ، والمويلحى وغيرهم ٠

- ٢ -

والمقامات صورة للقصة القصيرة ونموذج لها ، ففيها من القصة القصيرة العقدة وتحليل الشخصيات ٠٠ والمقامات من أولى بذور النثر القصصى فى الأدب العربى لأنها ترمي الي تصوير بعض النفوس والشخصيات بطريق قصصى ولولا انصراف الكتاب الى الصناعة اللفظية لخطت المقامات خطوات واسعة فى سبيل النثر ٠٠ على أن أسلوب المقامات انتشر بين الناس وذاع أثره لولوع الناس بالصناعة اللفظية ويشير أسلوب المقامات الى أن ظاهرة التقليد كانت طاغية،وان كانت من ناحية الموضوع محاولة لخلق القصة الفنية ، ومن ناحية الصياغة كانت تمثل عصر صاحبها وما عليه صورة الأدب من قوة أو ضعف ٠ وتعتمد القصة الناجحة أكثر ما تعتمد على العقدة والعرض وعنصر الحركة والمفاجأة والوقائع المثيرة ، والتفاصيل الدقيقة وتسجيل ألوان من الحياة الاجتماعية وهذه الأصول متوفرة فى كثير من المقامات التى تدخل فى باب القصة من أوسع الأبواب ٠ وكان من الطبيعى أن توجد المقامة فى الأدب العربى فهى قصة تروى ، ومن طبيعة الانسان أن يروى قصصه وقصص الآخرين ٠ وقد ساعد رقى النثر الفنى فى القرن الرابع على كتابة القصة القصيرة أو فن المقامة بأسلوب رائع جذاب وان كان البعض يقول أن المقامات ربما كانت مقتبسة من أدب فارس ، ولكن البعض الآخر يؤكد على أن الأدب الفارسى لم يعرف فن المقامة قبل البديع ٠٠ ولا فى عصره ٠٠ وانما عرفت بعده بقرن من الزمان ٠٠ وأولى مقامات كتبت بالفارسية كانت للقاضى حميد الدين البلخى ٠ ويقول بعض النقاد الفارسيين أن لفظ مقامة هو من اختراع بديع الزمان ٠ ويقول بعض المستشرقين أن أساطير التوراة عند اليهود وقصة لقمان قد أوحتا الى بديع الزمان بفكرة المقامات ، ويذكر آخرون

ان قصص جحا من الآداب الفارسية والتركية هى التى أوحت لبديع الزمان بالمقامات · وهـذا الكلام كله يحتاج الى دليل فالواقع ان الظروف السياسية والاجتماعية والأدبية والفنية فى المجتمع العربى هى التي أوحت الي بديع الزمان بانشاء القصة القصيرة وكتابتها ·

والحوار فى المقامة عنده يدور بين رجلين هما : عيسى بن هشام الراوية وأبو الفتح الاسكندرى البطل ·· كلاهما شخص خيالى كما يقول أن عيسى بن هشام الراوية كان شـيخا للبديع ، وموضوع المقامات يتناول نقـد المجتمع الاسلامى فى القرن الرابع وتصوير حياة المسلمين الاجتماعيـة والعقليـة فى هـذا العهـد ، ولعـل « البـديع » كان يقصـد بمقاماته الى كتابة نمـاذج أدبيـة رائعـة يجتذيها الشباب فى دراستهم وحياتهم الأدبية والمقامات تعكس قـدرة على الصياغة واختيار الألفاظ والتأنق فى الجمل والتعبير ، ألفاظها مختارة عـذبة ينـدر فيها الغريب وأسلوبها منمق يكثر فيه السجع والجناس والطباق وغير ذلك من ألوان البديع ، ويضمنه ما يناسب المقام من قرآن أو حديث · ولكن يؤخـذ عليها ان الجانب الفنى فيها للقصـة غير متكامل فالحبـكة القصصية ضعيفة والحوادث غير متسلسلة ·

- ٣ -

وقـد ادى ظهـور فـن المقامات فى الأدب العربى الى غنـائه فى الألفاظ والأساليب والأخيـلة والمعـانى ، وأضافت المقامات الى الأدب العربى فنـا ادبيـا جـديدا لم يكن لـه وجـود مبد قبل هـو فن القصة القصيرة ، وقـدمت المقامات نمـاذج ادبيـة جميلة للأدباء ليحاكـوها ويسيروا على منوالها ممـا يساعد على قـوة الملكة والموهبة وقـد أحيت المقامات كثيرا من مفردات اللغـة وأساليبها ومن صور الأداء والتعبير فيها ، وكذلك فان كتب المقامات وشروحها والدراسات التى وضعت حولها ·· كل ذلك كان ثروة للغـة العربية وآدابها ، وقـد أسهمت المقامات فى بنـاء النهضة الأدبية الحـديثة فى مصر والعالم العربى · كما ظهـر فـن أدبى جـديد متأثر بفـن المقامة وهـو ضرب من الانشاء فيه تشابه مـع المقامة وأن كان ليس منها اذ لا يعتمد خصائص القصة ولا جانبها الفنى وهـو مقالات قصار تعتمد على الايجاز وتقصـد الى

الوعظ الحكمة تقدم النصح والخبرة وثمرة التجربة الى القراء ولا تحتوى على الحوار او البطل ·

وقد نمت المقامات وازدهرت فى بلاد خراسان وما وراء النهر ، تلك البلاد التى كانت قبل الفتح الاسلامى جزءا من الامبراطورية الفارسية ، فلما دخلها العرب وحكموها نشروا فيها دينهم ولغتهم وثقافتهم ، فأنجبت فحول العلماء والأدباء والشعراء · وقد اشتملت خراسان فى العهد الاسلامى على أربعة اقاليم عواصمها « نيسابور » و « مرو » و « هراة » و « بلخ » · وكانت هذه · الاقاليم تحت حكم أربعة من آل سامان ، وهم من الفرس الذين عرف المأمون فضلهم ونبلهم ، فعينهم عليها حكاما ، وعرفت هذه بالدولة السامانية ·

وفى عهد الدولة السامانية ظهرت حركة ادبية قوية من شعر ونثر فنى لعدد كبير من الأدباء يذكر التاريخ اسماءهم منسوبة الى بلادهم التى نشأوا بها ، فنقرأ أسماء « البلخى » و « الخوارزمى » و « الفارابى » و « الترمذى » و « البخارى » و « النيسابورى » و « الزمخشرى » · وسواهم · وكانت بخارى مطلع نجوم الأدباء والشعراء والكتاب آنذاك ··

وقد صال « بديع الزمان » وجال فى كتابة المقامات ، واملى أربعمائة مقامة فى الكدية (الاستجداء) ولم يعثر منها الا على ثلاث وخمسين مقامة · وتوالى بعد « البديع » كتاب المقامات ومنهم ابن « نباته السعدى » ، و « أحمد بن فارس » ، و « السيوطى » ، و « الزمخشرى » وغيرهم ، ولكن لم يشتهر منها سوى مقامات « الحريرى » التى تعادل مقامات « بديع الزمان » فى خفة الروح ، وجمال الأسلوب ، وطلاوة التعبير ·

ويقول الشريشى شارح مقامات الحريرى : « المقامات : المجالس واحدتها مقامة ، والحديث يجتمع له ويجلس لاستماعه يسمى مقامة ومجلسا ، لأن المستمعين للمحدث ما بين قائم وجالس »(١)·

---

(٢) شرح الشريشى لمقامات الحريرى ص ١٠ ط بولاق ·

وكان بديع الزمان الهمذانى أحد فحول المقامات الانشائية يعنى من كلمة « مقامة » معنى مجلس ، فقد جاء فى المقامة الوعظية ، عن عيسى بن هشام (وهـو راوى مقاماته) : فقلت لبعض الحاضرين من هذا قال : غريب قد طرأ لا أعرف شخصه ، فاصبر عليه الى آخر مقامته ، لعله ينبىء بعلامته .

والمقامة بهذا المعنى تتواءم كل المواءمة مع المعنى الأدبى الذى يرمى اليه الأدباء وهو الأسلوب الفحل والتعبير الجزل الذي ينتظم عقده ألفاظا غريبة قوية ومعانى دقيقة فنية وألوانا من السجع والمحسنات البديعية وروائع الشعر والحكم والأمثال يروى على لسان امرىء خيالى .

ـ ٤ ـ

وقد ذكر أبو اسحق الحصرى صاحب زهر الآداب فى ترجمته بديع الزمان الهمذانى أن أول من وضع أسس المقامات هو ابن دريد قال « ولما رأى البديع أن أبا بكر محمد بن دريد الأزدى أغرب بأربعين حديثا ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره واستنتجها من معادن فكره ، وأبداها للأبصار والبصائر ، وأهداها للأفكار والضمائر فى معارض أعجمية والفاظ حوشية ، فجاء أكثرهما مما تنبو عن قبوله الطباع ، ولا ترفع حجبها الاسماع ، وتوسع فيها اذ تصرف فى ألفاظها ومعانيها فى وجوه مختلفة ، وضروب متصرفة ، عارضها بأربعمائة مقامة فى الكدية تذوب ظرفا وتقطر حسنا ، لا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى ، وعطف مساجلتها ، ووقف مناقلتها ، بين رجلين سمى أحدهما عيسى بن هشام ، والآخر أبا الفتح الاسكندرى وجعلهما يتهاديان الدر ويتنافسان السحر »(٣) .

وروى الدكتور زكى مبارك ان البديع عارض ابن دريد مقامات تدانى فى عددها مقامات ابن دريد اذ يقول « أن بديع الزمان عارضه

(٣) زهر الآداب جـ ١ ص ٢٣٥ .

بمقامات أربعين انشأها ابن دريد ، والمعارضات كانت تتقارب فى الكمية »(٤) ويفهم من قول الحصرى » « وأهداها للأفكار والضمائر فى معارض اعجمية » ان ابن دريد أنشأ احاديثه فى بيئة فارسية . وأن البديع حين عارضه سمى أحاديثه مقامات ، وصنيع البديع الهمذانى فى هذا الفن أجلى وأروع ، والذين انشأوا بعد ذلك مقامات لم يصدروا الا عن ورد الهمذانى فتأثروا بطريقته واحتطبوا فى حبله .

ويذكر جورجى زيدان ان أبا الوليد أحمد بن فارس الرازى الأديب اللغوى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ صنع مقامات فيقول : « وله التقدم فى وضع المقامات ، لأنه كتب رسائل اقتبس منها العلماء صنعته وعليه اشتغل بديع الزمان الهمذانى »(٥) بيد ان مقاماته ضاعت كما ضاعت مقامات ابن دريد .

وضياع مقامات ابن دريد وابن فارس جعل اكثر المؤرخين يعدون البديع أبا عذرة المقامات ومفترع بكارتها ، ولقد شيد البديع صرح مقاماته على الكدية(٦) وأدار الحديث بين شخصين ، جعل احدهما بطلا وهو أبو الفتح الاسكندرى ، والآخر راوية وهو عيسى بن هشام ، وعدد مقاماته التى بين أيدينا خمسون مقامة اجاد فيها الحلة ريطتها ومربالها ، ثم جاء بعد الهمذانى ابن نباتة السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ فدبج مقامات لم يتح لها أن تبلغ شأن مقامات البديع ولم تحظ بشهرة أو اعجاب ، ثم وضع ابو القاسم البغدادى بعده مقامات لم تلبث أن ذهبت صرخة فى واد واخنى عليها الذى اخنى على لبد(٧) ، ثم جاد الزمن بأبى محمد القاسم ابن على الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ هـ فتفتحت اكمام بلاغته عن خمسين مقامة ، اعتمد فى تشييد صرحها على اديبين ــ على غرار الهمذاني ــ أحدهما البطل والآخر الراوية أما البطل فليس خياليا ، وانما هو

---

(٤) النثر الفنى جـ ١ ص ٢٠٦ .

(٥) تأريخ آداب اللغة العربية جـ ٢ ص ٣٠٩ ط دار الهلال سنة ١٩١٢ .

(٦) الكدية : معناها التسول .

(٧) ويظن ان أبا القاسم البغدادى هو كناية عن أبى حيان التوحيدى (ت ٤١٣ هـ) فهو صاحب هذه المقامات وصانعها .

شخصية لها ظـل فى واقع الحياة ، فقـد اتفق أن قـدم البصرة أعرابى فصيح يسمى أبا زيد السروجى فنحله الحريرى وقائع مقاماته ، ونسب اليه القيـام بأدوارها ، وأما الراوى فهـو شخصية خيالية محضة(٨) ، ويسمى الحارث بن همام ويتغيا بذلك نفسه ، وقـد شاعت مقامات الحريرى وطبقت شـهرتها الافـاق وحظيت بالقبـول والوفاق وهزجت بها العصور وتغنت بها الدهور ٠

وجاء بعـد الحريرى أدباء دبجـوا مقامات لم يتح لهـا الشهرة وكانت أدنى الى المقالة منها الى المقامة مثل جار الله الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٧ هـ٠وسمى مقاماته «اطباق الذهب» وهى حكم ومواعظ موجزة لا تمت الى القصة بوشيجة وليس لهـا بطل ولا راوية وقد عارضـه شرف الدين الأصفهانى سماها « أطـواق الذهب » ٠

- ٥ -

وكان كتـاب المقـامات فى هـذه الآونة يجيدون الصنعة البديعية ويتجـلى فى أدبهم طابعهـا ، وكانوا ينشـئون المقـامات للمفـاخرة والتباهى بالتضلع فى اللغـة والأدب والبراعة فى الغوص الى أعماق اللغة واستخراج دورها ولآلئها ، والتحليق فى الآفاق لاصطياد الشوارد والأوابد من الكلمات الغريبة والعبارات الفحلة والأساليب الجزلة ، وجورجى زيدان يرى أن « المراد بالمقـــــامات فى الأكثر التفنن فى صناعة الانشاء » وذكر الحريرى انه انشأها استجابة لرغبة من اشارته حكم وطاعته غنم ، وتلا فيها تلو البديع الذى عزا الى أبى الفتح الاسكندرية نشأتها ، والى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يعرف ونكـرة لا تعـرف(٩) ٠٠

ولقد شيد البديع صرح مقاماته على الكدية وجاء مقامات الحريرى

---

(٨) تاريخ آداب اللغـة العربية ج ٢ ص ٢٧٥ ٠

(٩) مقـامات الحريرى ص ٥ ٠

على هذا الغرار ، وكانت الكدية رائجة السوق فى هذه الأونة ، ولعل السبب هو ظلم الحكام وطغيانهم وفساد النظام الاجتماعى فى القرن الرابع والخامس .

وهكذا كانت المقامات مظهرا من مظاهر النشاط الأدبى الذى عبق أرجه وتضوع شذاه فى القرن الرابع الهجرى ، فان الكتاب تباروا بأفراس مضمرة فى حلبة الكتابة واقتعدوا غاربها ومتحوا من ينابيعها اللغوية .

فتجلى أثر ذلك فى أدبهم بهذه المقامات التى جاءت عقدا خلابا يزين جيد بنت عدنان ويخلب اللب والوجدان بما حفلت به من الكلمات اللغوية والفقرات القوية والأشعار الشاعرة والأمثال السائرة والحكم الرشيقة والعظات الأنيقة وبنوع خاص مقامات الحريرى التى استرعت الأنظار واستلفتت الأفكار ، واشرأبت اليها أعناق الظامئين الى الأدب وعشاق الغريب فى لغة العرب واتخذوها ينبوعا ثرا للألفاظ الجزلة والعبارات الفحلة التى حافظت على ثروة اللغة وكانت موسوعة أدبية ينهل الظامئون الى الأدب من ينابيعها الثرة فينقعون الغلة ويشفون العلة .

- ٦ -

وكانت المقامات ارهاصا بتبلج اصباح القصة العربية فانها - فى الواقع - ليست سوى قصص قصيرة أشبه بالقصص التى تسمى عند الفرنج الدراما ، وقد تتيسل طريقتها الأدباء ترفعهم نجاد التوفيق حينا وتخفضهم وهاد الأخفاق حينا آخر ، حتى كانت آخر المحاولات الموفقة على يد محمد المويلحى حين أخرج لنا كتابه الرائد « حديث عيسى بن هشام » فى أسلوب قصصى طريف يطوف بمحراب السجع فى كثير من التعبير ويجنح عن الوعورة فى كل تصوير وجعله على لسان راوية اتخذ اسمه عنوانا للكتاب ، فجاء صورة جلية للمقامات ، وان اختلف عنها ببضاضة الأسلوب والزهد فى الغريب .

ولعل من اروع المقامات التى حفل بها العصر الحديث مقامات ناصف اليازجى التى اسماها « مجمع البحرين » والتى بلغت ستين مقامة أستهلها بالبدوية واختتمها بالمقامة المقدسة وقدم لها فقال « اننى قد تطفلت على مقام اهل الادب ، من ائمة العرب ٠٠ الى سهيل بن عباد ، وكلاهما « هى بن لى » مجهولة النسبة والبلاد ، وقد تحريت بتلفيق أحاديث تقتصر من شبه مقاماتهم على اللقب وقبست وقائعها الى ميمون ابن خزام أن أجمع فيها ما استطعت من الفوائد والقواعد والغرائب والشوارد والأمثال والحكم والقصص التى يجرى بها القلم وتسعى لها القدم الى غير ذلك من نوادر التركيب ومحاسن الأساليب ، والأسماء التى لا يعثر عليها الا بعد جهد جهيد » ٠

ونحن اذا عرفنا أن القصة تعتمد على عنصر الحركة والمفاجآت والوقائع المثيرة ، والتفاصيل الدقيقة وتسجيل صور من واقع الحياة الاجتماعية ، الفينا أن كثيرا من هذه السمات يتجلى فى كثير من هذه المقامات ٠

الفصل الثانى

رائد فن المقامة

- ١ -

ينسب الحريرى فى مقدمة مقاماته فضل ابتداء المقامات الى بديع الزمان ، وعلامة همذان ٠

وكذلك الثعالبى يجعل البديع أبا عذرتها وأصل نشأتها ٠

ولكن الحصرى صاحب « زهر الآداب » يقول : ولما رأى البديع أبا بكر بن دريد أعرب بأربعين حديثا ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، واستنتجها من معادن فكره ، وأهداها للأفكار والضمائر ، فى معارض عجمية ، وألفاظ حوشية ، عارضها بأربعمائة مقامة فى الكدية تذوب ظرفا ، وتقطر حسنها(١) ٠ ويقول الدكتور زكى مبارك معلقا على هذا الكلام : مؤدى ذلك أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات ، وانه حاكى فيها ابن دريد فى أحاديثه ، ولكن لا ينفى ذلك أن البديع له فضل فى نشأتها ٠٠ وظاهر أن هذه الأحاديث هى ما دونه صاحب الأمالى فى فى كتابه من أحاديث ومجالس لغوية يرويه عن ابن دريد ، ويذهب البعض الى أن هذه الأحاديث المدونة فى « الأمالى »(٢) مصنوعة منتحلة على ابن دريد ، والبعض الآخر يذهبون الى أن ابن دريد قد اخترع هذه الأحاديث ونحلها لبعض الأعراب ليجعل منها صورا غريبة تروى وتحكى وتحتذى ردا على

---

(١) ١ : ٢٣٥ زهر الآداب ٠ راجع كتابى الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى ٠

(٢) مثل حديث مصاد بن مذعور وما جرى له مع الجوارى الطوارق بالحصى الذى يذكر بالمقامة الرصافية للبديع وما فيها من حيل اللصوص ، ومثل مقام بعض الأعراب بالمسجد مستجديا ، مما يشبه مقامات عيسى بن هشام ، بالمساجد مكديا ٠

الشعوبيين وعلى الفرس الذين أخذوا يحيون لغتهم وأدب بلادهم القديم في عصر ابن دريد ، ولتكون هذه الأحاديث نماذج للتعليم(٣) . وينفى باحث أن تكون أحاديث ابن دريد ذات صلة بفن المقامات كما عرف عند البديع(٤) . وكان ابن دريد كاتبا لآل ميكال ، وكانوا ولاة على فارس .

وذهب أحد الباحثين الى أن أبا المطهر الأزدى هو صاحب « حكاية أبي القاسم البغدادى » وأنها هي الأصل الذى احتذاه البديع في مقاماته ، وأن الأزدى هو مبتكر فن المقامة(٥) ، وشخصية أبي القاسم البغدادى في حكايته هي شخصية أبي الفتح الاسكندرى . وذلك مما يثبت لنا عدم صحته .

- ٢ -

ويروى لابن فارس الامام اللغوى المتوفي عام ٣٩٠ هـ مقامات ، ويقول فيه جورجى زيدان : « له فضل التقدم فى وضع المقامات ، لأنه كتب رسائل اقتبس منها العلماء نسقه ، وعليها اشتغل بديع الزمان . تلميذ ابن فارس » ويقول فيه ابن خلكان : لابن فارس رسائل أنيقة ومسائل فى اللغة اقتبس منها الحريرى صاحب المقامات ذلك الأسلوب ، ووضع المسائل الفقهية فى المقامة الطبية .

ثم جاء بديع الزمان ، فرويت له خمسون مقامة ، والراجح أنه أنشأ أربعمائة مقامة ، على ما روى الثعالبى وياقوت وابن خلكان ، ويؤكد ذلك البديع نفسه فى رسالته الى أبي المظفر ، حيث يقول : « ومن أملي من مقامات الكدية أربعمائةمقامة لا مناسبة بين المقامتين

---

(٣) ص ١٣٧ دراسات فى الأدب .

(٤) ص ٢٠٧ بديع الزمان للشكعة .

(٥) يبدو أن ذلك غير صحيح وأن صانع « حكاية ابى القاسم البغدادى هو أبو حيان التوحيدى .

لفظا ومعنى ، حقيق الانهاج لكشف غيربه »(٦) ، والظاهر أن أكثر مقامات البديع قد ضاع ، ولم يبق الا ما تضمنته مقاماته المطبوعة .

ومن كتاب المقامات بعد البديع : ابن نباته السعدى م ٤٠٥ هـ ، والحريرى م ٥١٦ هـ ، وأبو الهيجاء الأصفهانى الذى الف مقاماته عام ٥٤٩ هـ وتوفى فى القرن السادس ، وكذلك ابن الجوزى م ٥٩٧ هـ ، ثم ابن الوردى ، والشيخ العطار ، وأحمد فارس الشدياق ، وناصيف اليازجى ، وعبد الله فكرى ، وسواهم .

– ٣ –

والمقامات هى صورة للقصة القصيرة ، ونموذج لها ، ففيها من القصة القصيرة العقدة ، وتحليل الشخصيات(٧) .

وتحسب المقامات من أول بذور النثر القصصي في الأدب العربي لأنها ترمي الي تصرير بعض النفوس والشخصيات بطريق قصصى ، ولولا انصراف الكتاب الى الصناعة اللفظية لخطت المقامات خطوات واسعة فى سبيل النثر القصصى الذى يصور حياة النفوس والاجتماع . على أن أسلوب المقامات تمشى في الأدب العربي ، وذاع أثره فى بلاد المشرق والمغرب ، لو لوع الناس بالصناعة اللفظية .

ويشير أسلوب المقامات – على اختلاف عصور أصحابها وأمصارهم – الى أن ظاهرة التقليد كانت طاغية عليهم غالبا ، وأنها من ناحية الموضوع كانت محاولة كبيرة لخلق القصة الفنية ، ومن ناحية الصياغة كانت تمثل عصر صاحبها ، وما عليه صورة الأدب من قوة أو ضعف ، وبذلك تراها كانت تنحدر بانحدار الأدب جيلا اثر جيل ، من استمساك فى الأساليب ، الى هلهلة وركاكة جريا وراء البديع ومراكمة بعض زخارفه فوق بعض .

---

(٦) ٢٢٧ رسائل البديع .
(٧) ١ . ٢٠٧ النثر الفنى لزكى مبارك .

وتعتمد القصة الناجحة أكثر ما تعتمد على العقـدة والعرض ، وعنصر الحركة والمفاجأة والوقائع المثيرة والتفاصيل الدقيقة ، وتسجيل ألوان من الحياة الاجتماعية ٠٠ وهـده الأصول متوافرة فى كثير من المقامات التى تدخل فى باب القصة من أوسع الأبواب ، ومن أمثلة ذلك المقامة الموصلية ، والأسـد وسواهما(٨) ٠

- ٤ -

ولكن لمـاذا نشأ فـن المقامة فى الأدب العربى ؟

١ - انه لمن الطبيعى أن توجـد المقـامة فى الأدب العربي فهي قصة قصيرة مسطرفة تروى ، وحوار يؤثر ، ومن طبيعة الانسان أن يقص قصصه وقصص الآخرين ، وقـد ساعد رقى النثر الفنى في القرن الرابع على كتابة القصة القصيرة أو فن المقامة بأسلوب رائع جـذاب مشرق ، ومن تمـام التشويق اختار البديع موضوع مقاماته فى الكدية، وقلده فى ذلك الحريرى وسواه ، والحريرى كذلك يقلـد البديع فى فن المقامة اذ أنشأ خمسين مقامة على نمط المروى للبديع(٩) ٠

٢ - ويذكر البعض أن المقامات مقتبسة من أصـل فارسى ، ولكن الباحثين المنصفين من عرب وفرس ينفـون أن تكـون المقـامات قـد وجـدت فى الأدب الفارسى قبل البديع ، اذ لم تعرف المقـامات فى الأدب الفارسى قبله ولا فى عصره ، وانما عرفت بعـده بقرن ونيف ، وأول مقامات كتبت بالفارسية هى للقاضى حميـــد الدين البلخي الذى بدأ بانشائها عام ٥٥١ هـ ، وتوفى عام ٥٥٩ هـ - ١١٦٤ م كما يقول براون ،

---

(٨) راجع ٢٧٩ وما بعـدها - بديع الزمان للشكعة ٠

(٩) سبق أن قلنا ان البديع كتب اربعمائة مقامة ، ويرجح البعض أنه لم يمل الا أربعين مقامة عارض بها أحاديث ابن دريد الاربعين ، وهـذا خطـأ ، ومقامات البديع المطبوعة خمسون فى طبعـة الشيخ محمـد عبده ، واحـدى وخمسون فى طبعة الجوائب ، وثلاث وخمسون فى طبعة أخرى ، وقـد أسقط الامام محمد عبده المقامة الرصافية لمـا اشتملت عليه من فحش ومجون ٠

ويؤكد محمد تقى بهار فى كتابه « تاريخ تطور النثر الفارسي » أن لفظ مقــامة من اختراع البديع وأن كل اختراع فى الأدب العربى كان لــه صدى فى الفارسية ، وأن حميد الدين قلــد البديع والحريرى فى مقاماته • ويذكر الأنورى اعجاب الفرس وافتتانهم بمقامات حميد الدين هـــذه(١٠) •

٣ ــ يذكر بعض المستشرقين أن أساطير التوراة عند اليهود ، وقصــة لقمان ، قــد أوحتا الى بديع الزمان بفكرة المقامات ، وكذلك يذكر آخرون أن قصص جحــا فى الآداب الفارسية والتركية والعربية من ملهمات البديع بفن المقامات •• وهــذا استنتاج لا يؤيده الدليل • فالواقع أن الظروف السياسية والاجتماعية والعقلية ، والأدبية والفنية فى المجتمع العربى أوحت الي كاتب عربي هــو البديع بإنشاء القصة الصــغيرة وكتــابتها •

ـ ٥ ـ

سمات مقامات البديع :

١ ــ الحوار فى المقامة عند البديع يدور بين رجلين هما : عيسى ابن هشام الراوية ، وأبو الفتح الاسكندرى البطل • وكلاهما شــخص خيالى مجهول كما يقول الحريرى ، ويذكر بعض الباحثين أن عيسى ابن هشام الراوية كان شيخا للبديع ، ومنهم مؤلف « تاريخ همذان » أبو شجاع شيرويه م ٥٠٩ هـ ، وينقــل ذلك عنه ياقـــوت فى معجم الأدباء ، ولعــل ذلك وهم نشأ من قــول البــديع فى مطلع مقاماته : حــدثنا عيسى بن هشــام •

٢ ــ وموضوع مقامات البديع هــو الكدية ، ولكنها تتناول مـــع ذلك نقــد المجتمع الاسلامى فى القرن الرابع ، وتصوير حياة المسلمين الاجتماعية ، والعقلية فى هــذا العهد ، تصويرا رائعا •

---

(١٠) راجــع ٢١٢ ــ بديع الزمان للشكعة •

٣ - ولعل البديع كان يقصد بمقاماته الى كتابة نماذج أدبية فى رائعة يحتذيها الشباب فى دراستهم وحياتهم الأدبية ، أو لعله كان يدل بما له من قدرة على صياغة الأساليب ، واختيار الألفاظ ، والتأنق فى الجمل والتعبير . فألفاظها مختارة عذبة ، يندر فيها الغريب ، وأسلوبها منمق يكثر فيه السجع والجناس والطباق ، وغيرها من ألوان البديع ، ويضمنه بما يناسب المقام من : قرآن أو حديث أو حكمة أو مثل أو شعر . ولكن يؤخذ عليها أن الجانب الفنى فيها للقصة غير متكامل ، فالحبكة القصصية ضعيفة ، والحوادث غير متسلسلة ، والحوار ينقصه التشويق ، والعقدة والمشكلة التى تنتهى بحلها القصة ضئيلة أو معدومة .

- ٦ -

مقامات الحريرى :

١ - وقد أنشأ الحريرى (٤٤٦ - ٥١٦ هـ) خمسين مقامة وفق العدد الذى بقى لنا من مقامات البديع ، وبناها على الكدية ، كما فعل البديع ، ويقول فى مقدمتها : « وأنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خامدة وروية ناضبة وهموم ناصبة خمسين مقامة ، تحتوى على جد القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر البيان ودرره ، وملح الأدب ونوادره ، الى ما وشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات ، ورصعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية ، والأحاجى النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المحبرة ، والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية ، مما أمليت جميعه على لسان أبى زيد السروجي(١١) ، وأسندت روايته الي الحارث بن همام البصرى .

---

(١١) هو فيما يقال : المطهر بن سلام البصرى النحوى م ٥٤٠ هـ ، لزم الحريرى وتأدب عليه وتخرج به وجعل مقاماته رواية على لسانه ، أما الحارث ابن همام فيعنى به نفسه ، وقيل أن الحريرى ذكر أن السروجى كان شحاذا بليغا وحكيما مليحا ، ورد من البصرة فوقف فى مسجد بنى حرام ، فسلم ثم سأل الناس .

٢ - نالت مقامات الحريرى فى عصره وبعد عصره شهرة فائقة ، حتى قال فيها ياقوت فى (معجم الأدباء) : « لقد وافق كتاب المقامات من السعد ما لم يوافق مثله كتاب عرفته ، فانه جمع بين حقيقة الجودة والبلاغة ، واتسعت له الألفاظ وانقادت له جوامع البراعة ، حتى أخذ بأزمتها وملك ربقتها ، فاختار الفاظها وأحسن نسقها ، حتى لو ادعى بها الاعجاز لما وجد من يدفع في صدره ، ولا يرد فى قوله ، لا يأتى بما يقاربها ، فضلا عن أن يأتي بمثلها ، ثم رزقت مع ذلك من الشهرة ، وبعد الصيت ، والاتقان فى استحسانها من الموافق والمخالف ما استحقت وأكثر » ، ولمكانته صارت نموذجا فنيا تقتدى به الشعراء والأدباء فى صناعة الانشاء ، ويحفظه المتأدبون والشداة ، كسبا للموهبة وتنمية للذوق ٠٠ وشرحها كثير من العلماء من بينهم الشريشى م ٦١٩ هـ ، وعبد اللطيف البغدادى م ٦٢٩ هـ ، والعكبرى م ٦١٦ هـ ، وابن الأنبارى م ٥٧٧ هـ ، وابن الخشاب م ٥٦٧ هـ ، وسواهم ٠

٣ - ويذكر الحريرى أنه ألفها استجابة لمن اشارته حكم وطاعته غنم ، وقد اختلف فى تفسير ذلك ، فقيل هو الخليفة المستظهر بالله كما فى رواية الشريشى ، أو شرف الدين أنوشروان ابن خالد أحد وزراء المسترشد بالله على ما روى ياقوت وابن خلكان ، وابن طباطبا ، أو ابن صدقة أحد وزراء المسترشد أيضا كما رواه ابن خلكان على نسخة كتبها الحريرى ، أو عامل البصرة وواليها فى بعض نقول الشريشى ، أو هو أحد أعيان البصرة فى نقل آخر له ٠

٤ - والموضوعات التى بنى عليها الحريرى مقاماته ، هي كتلك التى اختارها البديع وشغل بها بطله ، من نقد وحوار أدبى ، وهداية وارشاد ، وجدل وحجاج ، ومعاياة والغاز ، مع ما يستتبع ذلك من وصف الأشخاص والمواضع ، واخراج البطل فى صور مختلفة من صور الساسانيين ، الذين انتشروا فى تلك الأزمان ، واحتالوا على الكدية والاستجداء باتخاذ مظاهر الوعاظ ، والعلماء ، والمفتين ، والغزاة ، وأبناء السبيل ، والأعراب ، والحواة ، والسحرة ، والمشعوذين ٠

وقـد اربى الحريرى فى ذلك على البديع فتزيد عليه في باب الالغاز بمـا اقتبسه عن ابن فارس ، من المعاياة بالمسائل الفقهية ، وزاد كذلك التلاعب بالصناعات اللفظيـة التى غالى فيهـا ، كنشـاء رسـالة تقرأ من اولها بوجـه ، ومن آخرها بوجـه ، أو رسالة تقرأ ردا وطردا فلا يحيلها الانعكاس ، أو رسـالة تتـكون من كلمـات معجمة ، فمهملة ، فمعجمة ، فمهملة على التوالى من أولهـا الي آخرها ، أو رسالة يراعى فى تأليفها تتابع الاهمال والاعجام بين الحروف من غير اخـلال ، الى اشـباه ذلك من ضروب العبث الذى لا يفيـد ، ولا يجـدى منه المعنى أو اللفظ أى جـدوى ، اللهم الا الضعف والتكلف المقوت .

٥ - والصنعة البديعية عند الحريرى متكلفة ، فقـد أجهـد فيها نفسه ، وأعمل من أجلها خاطره ، وتأنق كل التأنق فى اختيار جملها ، ورصف أساليبها ، وأكثر فيهـا من البـديع والوشى والزينـة كثيرا ، وحلاها بحلل ثقيلة من السجع والجناس ، والتورية والطباق ، ولم يبـال بالغريب من الألفاظ يتصيده ، والحوشى يستعمله ، مـع ما أورد فيها من حكمة ومثل ، وما ضمن من شـعر ، وما اقتبس من قرآن وسنة ، وقـد أرهقت الصنعة معانيه ارهاقا شـديدا .

- ٧ -

وهكـذا اضافت المقـامات الى الأدب العربى فنـا أدبيا جـديدا لم يكن لـه وجود من قبل هـو فن القصة القصيرة .

وقـدمت المقـامات نمـاذج أدبيـة جميـلة للأدباء والمتـأدبين ليحتذوها ويحاكوها ويسيروا على منوالها ، مما يساعد على قـوة الملكـة والموهبـة .

وقـد أحيت المقـامات كثيرا من مفـردات اللغـة وأسـاليبها ، ومن صور الأداء والتعبير فيها .

وكتب المقـامات وشروحها والدراسـات التى وضـعت حـولها ، كل ذلك كان ثروة للغـة العربية وآدابهـا .

وقـد اسـهمت المقـامات فى بنـاء النهضـة الأدبيـة الحـديثة

فى مصر والعالم العربى ، اذ كانت المقامات من أوائل ما طبـــع في مصر ، فتداولتها الأيدى ، وتناولها القراء يتأدبون بها ، ويتخرجون عليها فى صناعة النثر ٠

وقـد ظهـر فـن أدبى جـديد متأثر بفـن المقـامة ، وهـو ضرب من الانشاء فيه مشابه من المقـــامة ، وإن كان ليس منها ، اذ لا يعتمد خصائص القصة ولا جانبها الفنى ، وهـو بمقالات قصار ، تعتمد على الايجاز ، وتقصد الى الوعظ والحكمة ، وتسدى النصـح والخبرة وثمرة التجربة الى القراء ، وليس فيها حوار ولا لهـــا راوية ولا بطـل ، ولا تساق لغرض الكدية ، وهـذا الفن نجـده فى مثـــل كتاب أطواق الذهب لعبد المؤمن الأصفهانى ، وكتاب أطباق الذهب للزمخشرى ، وأسـواق الذهب لأحمد شوقى ٠

وللمقـامات بجـانب هـذه الحسـنات آثـار سـيئة فى اللغـة والأدب ، اذ كانت الصناعة البديعية اللفظية المتكلفة السائدة فيها ذات أثر على فن الأدب وأسلوبه وعلى ملكات المتأدبين والشداة ، وأشاعت فن الأحاجى فى الألغاز في الأدب وأبعـدت الشباب ٠

وهـذا يدلنا على فضـل البديع وسبقه ، والحقيقة أن مقامات البديع اكثر انطباعا ، واشـد انسجاما ، وابعـد عن زخرف الصـناعة وغريب اللغـة ٠ أما مقامات الحريرى فأبدع فنـونة ، وابرع خيـالا ، والطف فكاهة ، واكثر أمثالا ، وقـد نالت شهرة أكثر ممـــا نالتـــه مقامات البديع ، وترجمت الى اللغات الأوربية ٠

والحريرى على أية حال أشهر من كتب المقـامات بعـد البديع وقـد نسج على منواله ، وكرر اغراضه بأسلوب جزل ، مـع اكثار من الكلمـات الحوشية ، وترديه للشعر القـديم ٠

الفصل الثالث

ابن دريـد ليس المبتكر لفن المقامات

لقـد أشرت الى ذلك اشارات صغيرة فيما سبق ، وحـول ذلك دارت بحـوث ودراسات كثيرة ، بين من يجعــل ابن دريد صاحب الفضل الأول فى نشأة فن المقامة ، ومن بينهم د. شوقى ضيف ومن ينفى ذلك ، ومن بينهم الأستاذ عباس الصالحى فى كتـابه « فــن المقـامة » . وقـد كتب الأستاذ محمـد السيد الدغيم حـــول ذلك فى جريدة الحياة العربية التى تصـدر من لنـدن مقالا فى ١٩٩٢/٧/٧ ينفى أن يكون لابن دريد فى نشأة المقامة أى فضــل .

يقـول الأستاذ محمد السيد : لقـد ترجم لابن دريد الكثير من المؤلفين ، كطبقات الشـــافعية للسبكى (ت ٧٧٣ هـ/١٣٧١ م) ، وطبقات الشافعية لابن قاضى شبهة (٧٧٩ - ٨٥١ هـ/١٢٧٧ - ١٤٤٨ م) الذى قال فى المجلد الأول ، ص ١١٦ ، الترجمة رقم ٦٣ « أبو بكر الأزدى البصرى ... كان رأسا فى اللغة وأشعار العرب ، ولـه قصيدة طنانة يمـدح بهـا الشافعى رضى الله عنه ... قال الدارقطنى : تكلموا فيـه ... » . وذكــره الامام الذهبى (ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٧ م) فى كتابه « ميزان الاعتدال فى نقـد الرجال » ، فأكد رواية الدارقطنى، واضاف : « وقال أبو منصور الأزهرى اللغوى : دخلت على ابن دريد، « فرأيته سكران » ، وتوسع فى ترجمة ابن دريد الوزير جمال الدين على بن يوسف القفطى (ت ٦٢٤ هـ/١٢٢٧ م) فى كتابه « انبـــاه الرواة على أنباه النحاة » فســاق نسبه حتى أوصـــله الى : يشجب ابن يعرب بن قحطان ، وذكر أنه ولد فى « البصرة فى سكة صالح ، سنة ٢٢٣ هـ ، ونشأ بعمان ، وتنقل فى الجزائر البحرية ما بين البصرة وفارس ، وطلب الأدب ، وعلم نحو اللغـــة » . كما ذكر القفطى سؤالهم للدارقطنى ، عن ابن دريد « أثقـة هو أم لا ؟ فقال : تكلموا فيه ، وقيــل : أنه كان يتسامح فى الرواية عن المشايخ ، فيسند الى كل واحـد ما يخطر لــه » . وذكــر القفطى الأزهرى : « دخلت على ابن دريد فرأيته سكران ، فلم أعـد اليه » . كما ذكر رواية ابن شاهين

(٢٩٧ - ٣٨٥ هـ/٩١٠ - ٩٩٥ م) الذى قال : « كنا ندخل على ابن دريد ونستحى مما نراه من العيدان المعلقة ، والشراب المصفى ، وقد كان جاوز التسعين سنة » .

ونستطيع أن نقرر فى ضوء ما سلف أن ابن دريد كان من علماء اللغة الشعراء ، ولم يكن ثقة فى الرواية ، وهذا ظاهر فى ميزان الاعتدال ، وتاريخ الاسلام للذهبى (ت ٧٤٨ هـ/١٣٧٤ م) ولسان الميزان - ج/٥ ص ١٣٢ - ، لابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٨ هـ) ، وغير ذلك من الكتب الموثقة .

ولابن دريد من الكتب :

(١) الجمهرة فى اللغة ، (٢) كتاب السرج واللجام ، (٣) كتاب السحاب والغيث ، (٤) كتاب الملاحن ، (٥) كتاب الاشتقاق ، (٦) كتاب المجتبى ، (٧) الأخبار المنثورة ، (٨) رسالة من أفعل وفعلت (٩) أخبار أبى بكر بن دريد . وله كذلك المقصورة ، وله مرثية للشافعى (٢/١٩٥ تاريخ بغداد) .

وقد ذكرها ابن قاضى شهبة فى طبقات الشافعية ، ح ١/ ص : ١١٦ ، كما أوردها الاسنوى (٧٧٢ هـ/١٣٧١ م) فى كتابه طبقات الشافعية ص : ١٨٥ أيضا . وله مؤلفات أخرى :

(١) كتاب الخيل الكبير ، (٢) كتاب الخيل الصغير ، (٣) كتاب الأنواء ، (٤) ، كتاب المقتبس ، (٥) كتاب رواة العرب ، (٦) كتاب ما سئل عنه لفظا فأجاب عنه حفظا ، (٧) كتاب اللغات ، (٨) كتاب السلاح ، (٩) كتاب غريب القرآن الكريم - لم يتمه ، (١٠) كتاب أدب الكاتب ، على مثال كتاب ابن قتيبة ، ولم يجرده من المسودة ، فلم يخرج ، (١١) كتاب التوسط ... هذا ما ذكره القفطى فى أنباه الرواة ج ٣/ص ٩٦ - ٩٧ ، اضافة الى ما ذكره الكاتب فى مقاله ، كما نجد كتبا أخرى فى فهرست ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م) ، ص ٦١ - ٦٢ ، هى : (١٢) كتاب الوشاح ، وسماه صاحب

كشف الظنون : الوشاح فى الآداب ، (١٣) كتاب المقتنى ، (١٤) كتاب تقويم اللسان ، (١٥) كتاب المطـــر ، (١٦) كتاب الامالى ، ذكره حاجى خليفة فى كشف الظنون وقال : أن السيوطى اختصره فى كتاب سماه : « قطف الوريد » واضافة الى ما سبق نذكر : (١٧) ديوانه ، وقـد جمعه السيد محمد بدر الدين وطبع فى مطبعة لجنة التأليف والترجمة بمصر سنة ١٣٦٥ هـ/١٩٤٦ م ٠

وهـذا الايضـاح فى تبيين ما أغفـله الكتاب أو أكثر الباحثين من مؤلفات ابن دريد ، ومن اقوال العلمـاء فيه ، حتى نتمكن من تقـديم صورة واضحة عن ذلك الاديب اللغوى الذى قيل ان لـه اربعين مقامة فى روايات أبى على القالى : « حـدثنا أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد قال : ٠٠٠ » وما ذكره الحصرى (ت ٤٥٣ هـ/١٠٦١ م) فى كتـابه زهر الآداب (ج ٢٠٧/١) ٠٠ وهـذه حجة ضعيفة ، فلربما وردت تلك الأحاديث « الأقاصيص » فى مؤلفـاته العـديدة ، ولا يشترط أن يكون الف كتـاباً خاصـا بذلك ، ورواية الحصرى ليست حجة لبعـد عهـده الزمنى ، ومكان اقامته الجغرافى ، وعـدم توثيق الرواية عن السابقين ٠

وكتب الدكتور زكى مبارك مقالا عنوانه : : اصلاح خطأ قـديم مرت عليه قرون فى نشأة فن المقامات » نشره فى مجلة « المقتطف » عـدد : نيسان (أبريل) سنة ١٩٣٠ م ، الصفحة : ٤١٨ — ٤٢٠ ، واتهم زكى مبارك الحريرى فى اذاعـة غلط نسبة ابداع فـن المقامات الى الهمذانى ، وقال : « وصـلت الى أن بديع الزمان ليس مبتكر فـــن المقامات ، وانما ابتكره ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ هـ » ٠ واعتمـد مبارك على ما جاء فى « زهر الآداب » للحصرى ، وذكر « دهشـــة المسيو مارسيه » حين عرض عليه ذلك النص فى باريس ، كما ذكر دهشة طـه حسين الذى قال لـه : « ارجـع الى كتـــاب الأمالى للقالي ٠٠٠ » فرجع اليه مبارك وذكر « حـديث البنات اللاتى وصفن أزواجهن » (ج ١ ص ١٧) وحـديث العاشق الجميل (ج ١/ص ٣٨) وقصـــة الكـــاهن (ج ١/ص ١٣٤ طبـــع بـــولاق) والرواد الـذين أرسلتهم مذحج ، وقصة أبى نواس فى الحج ، وأشار الى أن أصول

فن المقامة لم تكن فارسية » كما أشار الى ذلك فى بعض محاضراته الدكتور احمد ضيف » .

وكتب مبارك مقالا آخر بعنوان : « احاديث ابن دريد » نشر فى « المقتطف » عدد : آيار (مايو) سنة ١٩٣٠ م ، صفحة ٥٦١ ـ ٥٦٤ ، وذكر فيه أن القالى روى عن ابن دريد « أكثر من ستين حديثا بعضها قصير ، وبعضها طويل ... » وقال : « اذا غضضنا النظر عن الأحاديث القصيرة جدا التى نقلها القالى عن ابن دريد وعددناها مما رواه عن شيوخه ، أو مما وقع اليه من كلام الأعراب ، كان ما بقى من احاديثه المتشابهة فى القدر والوضع والاسلوب قريبا من الأربعين » . ثم ذكر وضع ابن دريد واختراعه تلك الأحاديث معتمدا على ما ذكره الحصرى فى « زهر الآداب » ثم ذكر قصة أبى نواس التى وصفها ابن دريد ، واعقب ذلك بذكر اهتمام « ابن دريد بتصوير الشمائل العربية ، وكلفه بنوع خاص بتقديم طائفة من الصور المختلفة عن أحلام النساء فى فهم الرجال ، واعجاب البنات بأعمال الآباء ، وما يقع من الملاحاة بين الأزواج ، والتواصى بين الشباب والكهول ... » وأورد حديث ابن دريد « على لسان أوس بن حارثة : المنية ولا الدنية ، والعتاب قبل العقاب ... » وحديث الرجل الأعمى ـ من أزد السراة ـ مع الشاب الجميل « يا بن اخى : ان اغترارك بالشباب كالتذاذك بسمادير الأحلام ... » وذكر أن ابن دريد كان « يتعقب أعيان الجاهلية فينطقهم بألوان من الحوار تمثل ، ما كان يحب العرب أن يعرف عن أسلافهم من كرم الطباع ، وشرف الأحساب » .

وتعقيبا على ما كتبه زكى مبارك نشرت « المقتطف » فى « باب المراسلة والمناظرة » ردا للمرحوم مصطفى صادق الرافعى ـ الطرابلسى أصلا والمصرى اقامة ـ وذلك فى عدد آيار (مايو) سنة ١٩٣٠ ، الصفحة) ٥٨٨ ـ ٥٩٠ ، تحت عنوان : ـ خطأ فى اصلاح خطأ حول نشأة فن المقامات » ذكر فيه مقال الدكتور مبارك ودهشة مارسيه وطه حسين لاكتشافه ، وعلق على ذلك قائلا : « فالكاتب كما ترى ملك من هذا النص عنصر الدهشة ، وكذلك دهشت أنا ، ولكن لا من النص بل

من أن قوما يدرسون للناس تاريخ الأدب ، وهم الى اليوم يجهلون عبارة فى كتاب طبع مرارا مع العقد الفريد ، وطبع نصفه ، وفيه هذا النص ، على حدة ...

« ولم يذكر أحد فى أخبار ابن دريد أن له مقامات ، أو أحاديث ، وكتبه محصورة معروفة ، وقد ولد البديع بعد وفاته بنحو ثلاثين سنة ، ولا تكون المعارضة عادة الا للمشهور المتداول ، والأحاديث الموضوعة على الأعراب كثيرة لم ينفرد بها ابن دريد والاشهر وضاعها ابن الكلبى ، وابن دريد ينتهى اليه فى اكثر ما يرويه ... وكيف يعارض البديع أربعين حديثا بأربعمائة مقامة شرقت وغربت ، ثم لا يستفيض ذكر هذه المعارضة فى كتب المشرق ، ولا تراه منقولا الا عن رجل من أهل القيروان لا رحلة له ولا سند ، ولا رواية ، وانما يستطرف من كل كتاب ، ومن كل خبر ؟ ... وأن صاحب زهر الآداب يقول — فى أحاديث ابن دريد — أنه استنبطها من ينابيع صدره — يعنى ألفها — فهى من وضعه ، وليست من روايته ، وأنه اذا كان كذلك لم يبق وجه لان يدخلها القالى فى كتابه ، ويلبس بها على الناس ، ويزعمها مروية بالسند عن ابن دريد الى الأصمعى ، أو ابن الكلبى ، ولو فعل لكان كذابا ، وبطلت الثقة به وبكتابه . هذا مضحك ... لا شك عندى أن البديع قلد غيره فى صنعة المقامات ، وهذه كانت طريقته ... وقد وقفت على خبر مصنوع كتب قبل البديع بنحو مائة سنة ، ولو حذف اسم صاحبه منه لما شك أحد أنه من كتابة البديع فى مقاماته ، اذ النسق هو هو ، والطريقة واحدة .. » .

رد زكى مبارك على الرافعى بعنوان « حول نشأة فن المقامات — رد على رد » ونشر فى « المقتطف » عدد حزيران (يونيو) سنة ١٩٣٠ م ص ٨١ — ٨٢ . كما نشر فى العدد نفسه ص ٨٢ — ٨٥ ، تعليق على الموضوع لعبد القادر عاشور استعرض فيه نشأة المقامات وقال : « ان مدرسة ابن دريد هى الجسر الذى عبرته المقامات لتصل الى شاطىء الابداع فى التدوين والتصنيف ، وان عصره هو الحد الفاصل بين المقامة فى المجلس ، والمقامة فى الكتاب ، وان ابن فارس

هـو أول من دون فيها هـذا التدوين المعروف فاطلق عليه لفظها ، وبعـد أن حـذا حـذو ابن دريد فى احاديثه ، ثم جاء بعـده تلميذه بديع الزمان فسار على نمطه ... هـذه هى التى جعلت الحريرى يقول ما يقول ويشهد لصاحبها بالفضل والابداع .

ونشرت فى العـدد نفسه ص : ٨٥ – ٨٦ رسالة بعنوان « بيان حقيقة » تتضمن الاشارة الى اغلاط الحصرى في زهر الآداب » كتبت « على اثر قراءة لقول الأستاذ الرافعى فى المقالة التى رد بهـا على الدكتور زكي مبارك » .

ورد الرافعى فى « المقتطف » عـدد : تموز (يوليو) ١٩٣٠ م ص : ٢١١ تحت عنوان : « حـول نشأة فن المقامات » فقال : « ان ما خلط به الدكتور مبارك فى الكلام عن احاديث ابن دريد نقلا عن أستاذه الدكتور طـه حسين كلام مضحك ... لا ريب ان فى رأس الدكتـور وهما يمـد لـه فى مزاعمه الخيالية .. » .

وللدكتور يوسـف نور عوض – أستاذ كرسى الدراسـات الأدبيـة بجامعتى سوكوتو وعنابة سابقا وسالفورد – كتـاب « فن المقامات بين المشرق والمغرب » تناول فيـه المؤثرات الأدبية والفنية فى صناعة المقامة (ص ٦٥) فذكـر آثـار : ابن دريـد ، وابن فـارس (ت ٣٩٥ هـ/١٠٠٥ م) ، ومقامات الزهاد لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ/٨٨٩ م) التى وردت فى المجلد الثانى من كتاب عيون الأخبار (ص ٣٣٣ – ٣٤٣) بعنوان : مقامات الزهاد عند الخلفاء والملـوك وهى عشر مقامات ، ثم ذكر أثر النماذج الانسانية الفنية فى مقامات الهمذانى (ص : ٨٢) وهى كتاب البخلاء ورسالة التربيـع والتـدوير للجاحظ (ت ٢٥٥ هـ/٨٦٩ م) وحكاية أبى القاسـم البغـدادى ، لأبى المطهـر الأزدى (ت فى القرن الرابع الهجرى) وقـد نشرها آدم متز سـنة ١٩٠٢ م ، وأشار اليها زكى مبارك فى النثر الفنى ٣٨٨/١ . وذكر الدكتور عـوض أخيرا رسائل اخـوان الصـفا ، وهـذا كله يحتاج الى مناقشـة .

هكذا نجـد أن كتابات ابن دريد لم تشكل بداية مدرسة المقامات،
وقـد فند هـذا الزعم الكاتب عباس مصطفى الصالحى فى كتابه « فن
المقامة بين الأصالة العربية والتطـــور القصصى » وخلص الى « أن
الهمذانى هـو الأديب الذى صـاغ المقامات بشكلها النهـائى المعروف
حاليا » واستنتج عـدم وجود تشابه بين مقامات الهمذانى وأحاديث
ابن دريد وناقض رأى الدكتور شوقى ضيف بالتشابه ٠ وذكر أن الفرس
والعبرانيين عرفـوا فن المقامة بفضل اليهودى يهوذا سلومو الذى ترجم
مقامات الحريرى للعبرية ٠

الفصل الرابع

الأزدى وحكايات أبى القاسم البغـدادى وشـخصية الخـوارزمى

اصـدر آدم ميتز هـذه الحكايات عـام ١٩٠٢ ونشرها هى نفسها الأستاذ عبـود الشالجى عام ١٩٨٠ فى بيروت بعنوان « الرسـالة البغـدادية » .

والحكايات هى رواية أبى المطهـر الأزدى عن أبى القاسـم البغـدادى ، وهما فى الحقيقة شخصيتان اسطوريتان ، ومن الطريف أن المقامات أبطالها كما يقل شخصيات أسطورية .

وقـد اثبت أبو حيان التوحيدى حكاية أبى القاسم البغـدادى فى مؤلفاته ، كحـديثه عن المغنيات البغـداديات الموجود فى كتـاب « الامتاع والمؤانسة » ، وقيامه عـام ٣٦٠ هـ (ذكر تصحيف فى الحكايت عام ٣٠٦) باحصاء المغنين والمغنيات فى جانبى بغـداد ، مع جماعة من اهـل الكرخ ، وهـو مذكور أيضا فى كتاب « الامتاع والمؤانسة » ..

وقـد ذكر ياقـوت فى معجم الأدباء حكاية أبى القاسم البغـدادى أو الرسالة البغـدادية من ضمن مؤلفـات أبى حيـان التوحيـدى . فهى اذن لـه .

ويذكر بروكلمان فى « تاريخ الأدب العـربى (١٤٨ ج ٣) ان أبا المطهر اسمه ابن المطهر ، وحرف الى « أبى المطهر » ، وأنه هـو محمد بن أحمد المطهر الأزدى(١) وأنه ألف فى المـائة الخامسة للهجرة حكاية أبى القاسم البغـدادى التميمى(٢) مصورا بذلك نمـوذجا بغـداديا أصيلا من العادات والتقاليد ، فعـرض حيـاة بغـدادى طفيلى ظريف فصبح درب اللسان يقص مغامراته . وأحاديثه فى يوم كامل ببغـداد .

---

(١) تـوفى عـام ٤٨٥ هـ .

(٢) وهى التى نشرها آدم متيز عام ١٩٠٢ فى هايدلبرج عن نسخة فى المتحـف البريطـانى .

أبو بكـر الخـوارزمى

٣٢٣ — ٣٨٣ هـ

هـو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى الكاتب الشاعر العالم اللغـوى الأديب النحـوى الاخبارى ، الرحالة ، اديب خوارزم ، وبليـغ المشرق ، وصاحب الرسائل المشهورة .

كان أصـل آبائه من طبرستان ، وولـــد بخوارزم سنة ٣٢٣ هـ ونشأ بها . وكان متبحرا فى كل فـن من فنون العربية وخاصة الكتابة والشعر ، جاب الأقطار ، ودخـل الأمصار فى طلب العلم والأدب ، وتقلب فى خـــدمة كثير من المـلوك والأمراء والوزراء ، ولقى ســـيف الدولة وخـدمه بالشـام ، ثم شرق الى بخـارى ونيسـابور وسجستان وغيرها ، حتى وافى الصـــاحب الـوزير باصـــبهان ، فكان من جمـلة المختصين به . ثم ذهب الى عضد الدولة بشيراز ، فصـدر عنه بالأموال الطائلة ، فاستوطن نيسابور ، واقام بها للاملاء والتدريس ، فنكب نكبـة ســـجن فيهـا ، وفـر الى الصـاحب ، ثم عــاد الى نيسـابور . قال الثعالبى : « وطاب عيشه بها الى ان رمى فى آخر أيامه بداهية من البديع الهمذانى ، وبلى بمساجلته ومناظرته ومناضلته ، واعـان البديع عليه قـوم من الوجوه ، فلاقى ما لم يكن فى حسبانه ، وأنف من تلك الموقف ، وانخـذل انخـذالا شـديدا ، وكسف بالـــه ، ولم يحـل عليـه الحول حتى مات سنة ٣٨٣ هـ » .

ومنزلته فى الكتـابة لا تنكر ، ويمتـاز عن الصـاحب بجزلة اللفظ وفخـامته ، وكثير من النـاس يفضله عليه ، ويمتاز البديع عنه برقـة العبارة وقصر السجع ، وكان يتشيع ، ولـه فى ذلك رسائل بديعـة ، ولـه ديوان رسائل طبع فى الآســـتانة وغيرها ، وفيـــه الكثير من رسـائله البليغـة المطـولة .

بديـع الزمـان الهمـذانى

٣٥٨ ـ ٣٩٨ هـ

- ١ -

هـو بديع الزمان أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمـذانى الكاتب المترسـل ، والشاعر المبـدع ، حافظ عصره ، وذكى دهـور ، وقـدوة الحريرى فى انشاء المقـامات ، وقريع الخـوارزمى فى المبتدعات والمكاتبات . نشأ بهمذان ودرس العربية والأدب على ابن فارس وغيره ، وورد على الصـاحب فاقتبس من أدبه وماله ، ثم ضرب فى الأرض يتكسب بالأدب فأقام بنيسابور مدة أملى بها أربعمائة مقامة فى الجـد والهزل نحلها أبا الفتح الاسكندرى محـدثا عن عيسى بن هشام بلفظ أنيـق ، وسجع رقيق ، وعلى منوالها نسج الحريرى مقاماته ، واحتذى حـذوها ، واعترف بفضل السبق لـه ، ثم شجر بينه وبين الخوارزمى ما كان سببا لهبوب ريحـه وبعـد صـيته ، اذ لم يكن فى الحسبان أن احـدا يجترىء على الخوارزمى أو يتحكك به ، فانتصر لهـذا قـوم وتعصب لهـذا آخرون ، واتفق أن مات فى أثنـاء ذلك خصمه ، فخلا لـه الجـو عند المـلوك والرؤسـاء ، وتجـول فى حواضرهم . فلم يبـق بلـد فى خراسان الا دخله الى أن ألـقى عصاه فى هراة ، وصاهر أحـد أعيانها من العلمـاء ، فطاب عيشه ، ونعم باله ، ولكن المنية عاجلته وهـو فى سن الأربعين ٣٩٨ هـ . قيـل انه مات مسموما ، وقيل انه مات بالسكتة ، وعجل دفنه ، فأفلق فى قبره وسمع صوته بالليل . وأنه نبش قبره فوجـدوه وقـد قبض على لحيته ومات من هـول القبر .

وكان البديع أسرع أهـل زمانه بديهـة ، وأكثر شـعره وكتابته مرتجـل ، وكانت عبارته سهلة لينـة قصيرة السجع . تشهد عـذوبة لفظها ، وتدفق جملها ، بأن صاحبها قالها طبعـا من غير ان يكدح خاطرا ، او يتعمد صناعة ، ولا غرو فقـد قيل : انه كان يلقى عليـه القصيدة الفارسية فيترجمها فى الحال شعرا الى العربية ، وكان لجريان

طبعه وتوقد ذهنه وتمكنه من صناعته ، يتعمد ان يكتب الكتاب الذى يقترح عليه ، فيبتدىء بآخر سطوره ، ثم هلم جرا الى الأول ويخرجه كأحسن شىء وأصلحه .

- ٢ -

ومقامات الهمذانى هى حكايات أو قصص قصيرة ، انشأها بديع الزمان من الحوادث التى وقعت لـه أو شاهدها فى أثناء رحلاته الكثيرة فى بلاد خراسان وما جاورها . وقـد كتبها فى نيسابور بعـد أن عاشر كثيرا من الناس ، وخالط العامة والخاصـة هنـاك . ويظهر أن التسول كان ذائعاً وكانت حيل المتسول معروفة لديه ، وقـد عرف بعضهم واتصل به . وكان كثير من الأدباء اذ ذاك على هـذه الحـال . فيكتب مقـاماته يصف فيها حالة هؤلاء ، وعزاها الى رجـل سماه أبا الفتح الاسكندرى ، ونسب روايتها الى رجـل آخر سماه عيسى بن هشام . وقـد يكون فى حياة أبى الفتح الاسكندرى شىء من صفات بديع الزمان نفسه ، وشىء من أخلاقه ، لأنه كان ممن يسأل بأدبه ، ولأن حياته كانت فى جملتها على هـذا النحـو من الرحلة والسؤال . وموضوع مقاماته أن رجـلا شحاذا أديبـا وهـو أبو الفتح الاسكندرى كان يجـول فى البلاد ويتفنن فى أساليب الاحتيـال للحصول على المـال . وكل مقـاماته التى تنيـف على الخمسين لا تخرج عن هـذا الغرض ، ولكنها تمتاز بدقـة أسلوبها ، وسلاسة الفاظها واختيار عباراتها ، واشتمالها على كثير من المعانى الطريفة ، والألفـاظ اللغوية ، وعـدم التكلف الظاهر . حتى لقـد يبـدو أحيانا أن أسلوبها أقرب الى الكلام الفطرى منه الى التعمل والصنعة . وهى مسجوعة ، ولكن سجعها رقيـق سـهل ، احتـوى على كثير من المحسنات البديعية ، والاستعارة والمجاز .

الفصل الخامس

مقـــامات البـــديع

فى المقامة الأولى « القريضية » يذكر البديع أن عيسى بن هشام حدثه فقال : طرحتنى النوى مطارحها ، حتى وطئت جرجان الأقصى » ، وفيها لقى أبا الفتـــح الاسكندرى دون أن يعـرف كل منهما صاحبـه ، واخـذ أبو الفتح يحـدثه عن الشعراء ، ثم انصرف ، فقـــال عيسى ابن هشام فى نفسه : الاسكندرى والله ·

والمقـامة الثانية هى الأزادية ، وفيها يستجدى ابو الفتح النـاس ومعــه عيـاله وأطفـاله ·

والثالثة هى البلخية ، وفيها ينسب أبو الفتح نفسه الى قريش ·

والرابعـة هى السجستانية ·

والخامســة الكوفيــة ·

والسادسة الأســدية ، وفيها يقول عيسى بن هشام عن أبى الفتح : وانا أســأل الله بقاءه ، حتى أرزق لقاءه ، واتعجب من قعود همته مـع حسن اكتسابه ·

والســـابعة هى الغيـلانية ·

والثامنة الأذربيجانية ، وفيها يقول أبو الفتح عن نفسه : أنا جوالة البـلاد وجـوابه الأفـاق ·

والتاسعة هى الجرجانية ، وفيها يقـــول أبو الفتح عن نفسه : انى امرؤ من اهـل الاسكندرية ، من الثغـور الأموية ·

والعاشرة : الأصــفهانية ·

والحادية عشرة : الاهــوازية ·

والثانية عشرة : البغــدادية ·

والثالثة عشرة : البصــرية ·

والرابعة عشرة : الفــزارية ·

والخامسة عشرة : الجاحظية ، وفيها ينشد أبو الفتح شعرا لــه : اســكندرية دارى الخ ·

والسادسة عشرة · الكـــوفية ·

والسابعة عشرة : البخارية · وفيها يقول عيسى بن هشام : غزوت الثغر سنة خمس وسبعين ، ويريد منــه خمســا وســبعين وثلاثمـــائة بالضــرورة ·

والثامنةعشرة : القــزوينية ·

والتاسعة عشرة : الساسانية ، وتدور أحــداثها فى دمشق ، وفيها يجعــل أبا الفتح زعيم الكتيبة الساسانية ·

والحادية والعشرون : الموصليـــة ·

والثانية والعشرون : المضيرية ، وأحــداثها فى البصرة ·

والثالثة والعشرون : وفيهــا يقـــول أبو الفتـــح عــن نفســـه : أنا من بلاد الاســكندرية ·

والرابعة والعشرون : المــارستانية ، ويريد مارستان البصرة وفيها يؤكــد أن اسكندرية داره ·

والخامسة والعشرون : وفيهـــا يقـــول أبو الفتـــح عن نفســه : أنا من ذوى الاسكندرية ٠

والسادسة والعشرون : الوعظيـــة ٠

والسابعة والعشرون : الأســـدية ٠

والثامنة والعشرون : العراقية ، وفيها يقول أبو الفتح : أنا عيسى الأصـل ، اسـكندرى الـدار ٠

والتاسعة والعشرون : الحمدانية ٠ وفيها يقول عيسى بن هشام : حضرت مجلس سيف الدولة يوما ، ويقـــول أبو الفتح عن نفسه : من الثغور الأموية ، والبلاد الاسكندرية ٠

والثلاثون : الرصـــافية ، ويذكر فيهـا حيل الساسانيين ، وفيهـا يقـول عيسى بن هشام : فقـام كهل منهم ٠

والحادية والثلاثون : المغـــزلية ٠

والثانية والثلاثون : الشيرازية ، وفيها يقـول عيسى بن هشام : دخـل كهل قـد غبر فى وجهه الفقر ٠

والثالثة والثلاثون : الحلـوانية ٠

والرابعة والثلاثون : النهيـــدية ٠

والخامسة والثلاثون : الأبليســـية ٠

والسادسة والثلاثون : الأرمينيـــة ٠

والسابعة والثلاثون : ويقول فيها فضل الأمير على ابن العميد كفضل قريش على باهـلة ٠

والثامنة والثلاثون : الخلفيـة ، ولعـل النسبة الى خلف بن أحمد أمير نيســابور ٠

والتاسعة والثلاثون : النيســـابورية ٠

والأربعون : العلمية ، وفيها يذكر ابو الفتح ما سبق ان ذكره : اسكندرية دارى ٠

والحادية والأربعون : الوصـــية ، وفيها يقـــول : لمـا جهـز أبو الفتح ولـده للتجارة ٠

والثانية والأربعون : الصيمرية ، وفيها يقول عيسى بن هشام : قال محمد بن أسوان المعروف بأبى العنبس الصيمرى (٢٧٥ هـ) ٠

والثالثة والأربعون : الدينـــارية ٠

والرابعة والأربعون : الشـــعرية ٠

والخامسة والأربعون : الملوكية ، وفيها ذكر ســـيف الدولة وذكر الأمير (خلف) ٠

والسادسة والأربعون : الصـــفرية ٠

والسابعة والأربعون : المـــــــــارية ٠

والثامنة والأربعون : التميميـة أو الحـرامية ٠

والتاسعة والأربعون : الخمـــرية ٠

والخمسون : المطليـــة ٠

والحادية والخمسون : البشـــــــرية ٠

الفصل السادس

تطـــور فـــن المقـــامة
الحـــــــــــريرى

٤٤٦ ـ ٥١٦ هـ

- ١ -

هو(١) أبو محمد القاسم على بن محمد بن عثمان الحريرى البصرى اللغـوى النحوى الكاتب الشـاعر صاحب المقـامات المشهورة والبدائع المـاثورة ، وهـو عربى صميم من بنى حـرام ، ولـــد ٤٤٦ هـ بمشان البصرة(٢) ، ونشـأ بالبصرة وانقطع لتعـلم العربية من اللغـة والنحـو والأدب ، حتى صـــار نادرة زمانه ولا سـيما الانشـــاء ، فجـــارى البديع فى اختراع مقامات متخيلة القصص يأتى فيها على كثير من مواد اللغـة وفنون البلاغة وأمثال العرب وحكمها ، واتفق أن اعرابيـــا فصيحا يسمى أبا زيد قـــدم البصرة من سروج(٣) ، فأعجب أهـــل البصرة به ، فنحله الحريرى وقائع مقاماته ، وسمى راويهـا الحـارث ابن همام يريد نفسه أخـذا من الحـديث « كلكم حارث وكلكم همام » ، فالحارث : الكاسب ، والهمام : كثير الاهتمام ، وأول مقامة صنفها هى المقامة الحرامية الثامنة والأربعـــون ، وعـدة المقامات خمسون مقامة ، صنفها للوزير جمال الدين وزير المسترشد هكذا وجـد بخطه ، وقيل : انه عملهـــا للوزير أنوشروان وزير المسترشد أيضـــا ، وقـد استعظمها عليه حساده ، وزعموا أنهـا لمغربى قـدم البصرة ومات بهـــا .

ومن يطلع على مقاماته ويعـــرف مغازيها ومراميها وبلاغـــة

---

(١) ١٢٨ الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى الخفاجى .

(٢) هى قرية قريبـــة من البصرة ، كثيرة النخـــل ، وكان لـه فيها ١٨ الف نخـلة .

(٣) بلـد بالجـزيرة .

عباراتها ، يعرف ما كان عليه الرجل من الفضل الجم والأدب الغزير. وقد شرحت المقامات عدة شروح وترجمت الى عدة لغات وغاية ما أخذه كتاب الفرنجة عليها : وحده مغزاها وان أكثرها لا يخرج عن اكتساب المال بطرق خسيسة كالشحاذة والاستجداء ، وللحريرى العذر فى ذلك لأنه فرض روايتها عن الأعراب ، وهم كانوا لا يقدمون المدن الا منتجعين مستجدين ، وكان الحريرى على غناه قذرا وسخا قصيرا دميما ، يولع بنتف لحيته ، وله ديوان رسائل وشعر جميل وتآليف شريفة ، منها : درة الغواص فى أوهام الخواص ، وملحة الاعراب فى النحو ، والمقامات مطبوعة مشهورة .

- ٢ -

وقد نسج الحريرى(٤) علي منوال الهمذاني في مقاماته ، فقلده فى أسلوبها ، ونظمها وموضوعاتها وصفات راويها ، فقد جعل أبا زيد السروجى الذى عزا اليه مقاماته ، مثل أبى الفتح الاسكندرى : رجلا أديبا محتالا ، وكأنما أخذ أوصافه من أوصاف ذلك الرجل ، وكانت موضوعاته أشبه بموضوعات مقامات البديع ، لأن الحريرى وصف أبا زيد السروجى بانه فقير محتال ، يستعمل ذكاءه وقوة بيانه فى كسب عطف الناس عليه واستدرار أموالهم ، كما وصفه بأنه شاعر بليغ وخطيب مفوه ، وشحاذ ملح فى السؤال ، امتلأت نفسه بالاحتيال على الناس ، ينتقل من مكان الى مكان ، ويرحل من بلد الى بلد للسؤال ، وقد اتخذ ذلك حرفة له . وكل مقاماته وصف لنفس هذا الرجل ، أو صور لبعض الناس . ولا سيما الأدباء منهم ، وبيان لما هو كامن فى نفوسهم من أطماع وحيل ، واستعمال ما وهبوا من فصاحة وبلاغة فى ذلك . وقد أطنب الحريرى فى ذكر صفات أبى الفتح الاسكندرى. أما اسلوب مقاماته فأظهر شيء فيه تعمد السجع والصناعة اللفظية . ولكن التكلف لا يظهر فى كثير منها ، بل لقد يكون السجع حلية

(٤) ولد أبو القاسم بن على الحريرى سنة ٤٤٦ هـ بقرب مدينة البصرة ونشأ بالبصرة ، فاتصل بكثير من علماء اللغة العربية وأخذ عنهم فنونها وعرف كثيرا من مفرداتها ، حتى صار اماما فى ذلك . وألف كتبا فى اللغة منها : درة الغواس فى أوهام الخواس ، وكان شاعرا وأديبا وكاتبا ومؤلفا ، ومن أشهر ما كتب مقاماته المعروفة ، ويحسب الحريرى بهذه المقامات من أشهر أدباء العرب وأكبر كتابهم .

لكلامه ، وسببا لحسن ديباجته ، ولولا ذلك لكان كلامه غير مقبول لقلة معانيـه أو تكرارها • ومن مميزات اسـلوب هـذه المقامات أنها جعبـة ألفاظ لغوية ، وجمل مختارة ، وأمثال سـائرة ، وأشـعار رقيقة ، وقـد ولـع الحريرى بالصناعة اللفظية كـكل كتـاب زمانه • وأكثر من أنواع البديع ولا سيما التورية والجناس ، ولكنه دل على نبوغ فائق فى هذا النـوع من الكتابة الفنية •

ومن مقامة للحريرى يوصى ابنـه بالكدية والشحاذة وهى تصوير لفـكر الساسانية وأدبهـا :

يابنى ، انى جربت حقائق الأمور ، وبلوت تصاريف الدهور ، فرأيت المرء بنشبه لا بنسبه ، والفحص عن مكسبه لا عن حسبه ، وكنت سمعت أن المعايش امارة وتجارة ، وزراعة وصناعة ، فمارست هـذه الأربع ، لأنظر أيها أوفق وأنفع ، فما أخـذت منها معيشة ولا استرغدت بها عيشة ، أما فرص الولايات ، وخلس الامارات ، فكاضغاث الأحـلام ، والفىء المنتسخ بالظلام ، وناهيك غصة بمرارة الفطام ، أما بضائع التجارات ، فمرضة للمخاطرات ، وطعمة للغارات ، وما أشبهها بالطيور الطيارات • وأما اتخاذ الضياع ، والتصدى للازدراع ، فمنهكة للأعراض ، وقيود عائقة عن الارتكاض ، وقلمـا خـلا بها عن اذلال ، أو رزق روح بال ، وأما حرف أولى الصناعات ، فغير فاضلة عن الأقوات ، ولا نافقة فى جميع الأوقات ، ومعظمها معصوب بشبيبة الحياة ، ولم أر ما هـو بارد المغنم ، لذيذ المطعم ، وافى المكسب ، صافى المشرب ، الا الحرفة التى وضع ساسان أساسها ، ونوع أجناسها ، وأضرم فى الخافقين نارها ، وأوضح لبنى غبراء منارها ، فشهدت وقائعها معلمـا ، واخترت سيماها لى ميسما • اذ كانت المتجر الذى لا يبور ، والمنهل الذى لا يغور ، والمصباح الذى يعشو اليه الجمهور ، أو يستصبح به العمى والعـور ، وكان أصلها أعز قبيل ، وأسـعد جيل ، لا يرهقهم مس حيف ، ولا يقلقهم سل سيف ، ولا يخشون حمو لا سع ، ولا يدينون لدان وشاسع ، ولا يرهبون ممن برق ورعـد ، ولا يحفلون بمن قام وقعـد • أنديتهم منزهة ، وقلوبهم مرفهة ، وطعمهم معجلة ، وأوقاتهم غـر محجلة • أينما سقطوا لقطوا ، وحيثما انخرطوا خرطوا ، لا يتخذون أوطانا ، ولا يتقون سلطانا ، ولا يمتيزون عما تغدو خماصا وتروح بطانا

ومن مقامات الحريرى المقامة الاسكندرانية ، التى تتضمن مخاصمة أبى زيد مع امرأته أمام القاضى مما يمثل حبل الساسانيين وادبهم فمنهـا :

« ٠٠٠ فبينما أنا عند حاكم الاسكندرية ، فى عشية عرية ، وقد احضر مال الصدقات ، ليفضه على ذوى الفاقات ، اذ دخل شيخ عفرية، تعتله امرأة مصبية ٠ فقالت : أيد الله القاضى ، وأدام به التراضى ، انى امرأة من أكرم جرثومة ، واطهر أرومة ، واشرف خؤولة وعمومة ، ميسمى الصون ، وشيمتى الهون ، وخلتى نعم العون ، وبينى وبين جاراتى بون ، وكان أبى اذا خطبنى بناة المجد ، وارباب الجد ، سكنهم وبكتهم ، وعاف وصلتهم وصلتهم ، واحتج بأنه أعاهد الله تعالى بحلفة ، الا يصاهر غير ذى حرفة ، فقيض القدر لنصبى ووصبى ، أن حضر هذا الخدعة نادى أبى ٠ فاقسم رهطه ، أنه وفق شرطة ، وادعى أنه طالما نظم درة الى درة ، فباعها ببدرة ٠ فاغتر أبى بزخرف محاله ، وزوجنيه قبل اختبار حاله ٠ فلما استخرجنى من كناسى ، ورحلنى عن أناسى ، ونقلنى الى كسره ، وحصلنى تحت أسره ، وجدته قعدة جثمة ، والفيته ضجعة نومة ٠ وكنت صحبته برياش وزى ، وأثاث ورئى ٠ فما برح يبيعه فى سوق الهضم ، ويتلف ثمنه فى الخضم والقضم ، الى أن مزق مالى بأسره ٠

مقـــامات اليـــازجى

عالج الشيخ ناصيف اليازجى فن المقامة كما عالجـــه عـدد من معاصريه كأحمد البربرى ، وابراهيم الأحـدب ، وعبد الله فكرى ، وفارس الشدياق وسواهم . الا أن اليازجى قـد تفوق عليهم ونال قصب السـبق فى هـذا المضمار بمقاماته الستين التى قلـد فيها الحريرى واحتذاه فى مقاماته ، حتى انه اطلق على احدى مقاماته « السروجية » نسبة الى بطل مقامات الحريرى « أبى زيد السروجى » وضمنها شطرا من ابياته هـو : « سروج ياناق فسيرى وخـدى » ..

وقـد اختار اليازجى لمقاماته بطلا اسماه ميمون بن خزام ، وراوية هـو سهيل بن عبـاد وجعـل معـه فى عـدد كبير من مقاماته ابيته ليـلى وغـلامه رجبـا ..

وكلا البطل والراوية لا يختلفان فى شىء عن بطل الحريرى وراويته ميمون بن خزام كالسروجى فى المكر والدهاء وذلاقة اللسان .. وكذلك يتفق سهيل بن عبـاد مع الحارث بن همام فى حب العلم والأدب والتنقـل من بلـد الى بلـد ، والتقائه بالبطل وتعرفه عليه ، بعـد أن يحاول التخفى والتنكر . كما أن اليازجى يقلـد الحريرى فى اطلاق اسماء البلاد على مقاماته .. بل يشاركه فى أسماء كثير من البـلاد التى أطلقهـا على مقاماته ، كالمقامة البدوية التى تسمى عند الحريرى « البكرية » أو « البـدوية » والمقـامة الحجـازية والعمـانية والاسـكندرية والمكيـة وغيرها .

ويقلده فى انه يبـدأ مقاماته بمقامة يتعرف فيها سهيل بن عباد على ميمون بن خزام وينهيها بتوبة البطل وأن كان اليازجى لا يكتفى بأن يحج بل يجعله يزور بيت المقـدس ، وكأنه يصـنع ذلك ليرضى بذلك المسلمين والمسيحيين فى لبنان ، ويقلده فى أن البطل كثيرا ما يبدأ فى المقـامة واعظـا ، وينتهى فيها الى الفسق ومعاقرة الشراب ..

وهـو مثل الحريرى قـد يختلق المشاجرات بين البطل وزوجتـه التى

هى ابنته ليلى ق كما يحتال على القضاة مثله فى أكثر من مقامة ويشاركه فى حشو مقاماته بالألغاز والصور البديعية كما يمزج مثله فى مقاماته بين الشعر والنثر ، وان كان شعره متكلفا غثاً لا يرقى الى مستوى شعر الحريرى الرائع فى كثير من قصائده ، وتسود مقامات اليازجى ـ كما تسود مقامات الحريرى ـ روح التشاؤم، وسوء الظن بالناس ٠٠

ويقال أن اول مقامة أنشأها هى المقامة العقيقية التى عرضها على أعضاء الجمعية السورية ، فأعجبوا بها ، فأنشأ ستين مقامة اطلق عليها (مجمع البحرين) أى بحر النثر والشعر ٠ وقد قرظها عدد من شعراء وادباء عصره ، كشهاب الدين العلوى الموصلى ، وسركيس ، وابراهيم كرامة ، وغيرهم ٠

واليازجى فى مقاماته يحذو حذو الحريرى ، والواقع انه قد تتبع خطاه وسار على نهجه فى الموضوع والأسلوب ٠ فمن الموضوعات التى طرقها : الوعظ كما فى المقامة الأولى (العقيقية) ، وان لم تكن الأولى فى ترتيب المقامات المطبوعة ٠٠ وفيها يعظ ميمون بن خزام الناس قائلا : يكرام الناس والعشائر وأولى الأبصار والبصائر ٠٠ أرأيتم ما أحرج هذا البيت واسمج هذا الميت طاوا جد وكد واشتد واعتد وركب الأهوال واحتشد الأموال ، فانوروا أين ما جمع وهل أتى بشىء منه الى هذا المضطجع ٠٠٠ الخ ٠

ويصور فى بعضها حيل المكدين كادعاء ميمون انه خطب لابنه ، واحتياله فى تحصيل المهر كما فى المقامة « الحجازية » ٠٠ لكنه فى أغلب مقاماته يطرق موضوعا محببا الى نفسه ، هو موضوع اللغة ، وما يتصل بها من صور البديع ، وهو يحاول أن يتفوق على الحريرى ويبزه مغاليا فى ذلك ٠٠ فهو ينظم اراجيز يسجل فيها أسماء المطاعم والنيران والساعات والرياح وبرد العجوز كما فى المقامة « الخزرجية » ، أو يعرض منظومات فى الجناس ، كما فى المقامة « الرملية » ، أو يضمنها مسائل فى دقائق النحو والصرف واراجيز فى علم النحو والعروض ٠

الباب الثاني

شـخصية أبى الفتـح الاسـكندرى
بطـل مقـامات البـديع

الفصل الأول

أبو الفتح ليس شخصية أسطورية

- ١ -

كان ابتكار البديع الهمذانى (٣٥٨ - ٣٩٨ هـ ، ٩٦٩ - ١٠٠٧ م) فى القرن الرابع الهجرى لفن المقامة حدثا أدبيا جديدا فى الأدب العربى .

فلقد بهر الأدباء والنقاد والرواة أسلوبها ، ونزعة القصة فيها ، وهذا الحوار الذى طالما دار بين بطلها أبى الفتح الاسكندرى وراويتها عيسى بن هشام ، كما بهرهم هذا النموذج الفنى الرفيع الذى تمثل فى شخصية الساسانى أبى الفتح البطل .

وفتن الناس بمقامات بديع الزمان افتتانا شديدا . وليس هناك الا البديع نفسه ، فهو أبو المقامة فى الأدب العربى ، صاحب الفضل فى انشائها(١) ، ويؤيد ذلك الحريرى أبو محمد القاسم بن على البصرى (٤٤٦ - ٥١٦ هـ) فى مقدمة مقاماته ، فقد جعل ابتداع المقامات راجعا الى بديع الزمان ، وعلامة همذان ، وكذلك جعل الثعالبى فى «اليتيمة» البديع أبا عذرتها ، والواضع لأصولها وخطتها . ويتابعهم فى ذلك كثيرون ، منهم ماورن عبود مثلا ، اذ يقول(٢) : أن خطة المقامات من عمل البديع ، فهو الذى ألبسها هذا الطراز ، وعلى طريقه هذه التى شقها سارت عجلة الأدب الف عام ، رعبثا نحاول العثور على أثر لهذه الخطة عند غير البديع .

وكذلك ذهب مازن المبارك الذى يقول(٣) : فتح البديع بابا فن جديد هو فن المقامة فى الأدب العربى .

---

(١) ٩٥ الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى الخفاجى .

(٢) ٢٤ « بديع الزمان » لمارون عبود .

(٣) ص ١٦ « مجتمع الهمذانى من خلال مقاماته » - مازن مبارك .

هـذا هو الرأى السائد ، ولكن الحصرى صاحب كتاب « زهـــر الآداب » يذهب فى كتـابه(٤) الى أن البـــديع اقتبس فن المقـامة من أحاديث ابن دريد (٢٢٣ ـ ٣٢١ هـ) ، ومعنى ذلك كما قال الدكتور زكى مبارك(٥) أن البديع ليس هـو المبتكر لفن المقـامة ، وأن كان لـه فضـل فى نشأتها ، وينفى مؤلف كتاب « بديع الزمان رائد القصـة القصيرة » وهـو مصطفى الشكعة(٦) أن تكون أحاديث ابن دريد ذات صـلة بفن المقامة كما عرف عند البديع ٠

ويجعل آخرون البديع محتـــذيا حـــذو أســـتاذه ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) فى رسائله الحوارية ٠

ويذكرون آخرون ، ومن بينهم شوقى ضيف(٧) ، أن البديع اقتبس مقاماته من كتابات الجاحظ وقصصه فى البخلاء والحيوان والمحاســـن والأضـداد عن أهـل الكدية ، ومـع جواز فى المضمون ، فان شكل المقامة الفنى يبـقى جـديدا كل الجـدة عند البديع ٠ وهناك على أيو حال فرق بين البذرة والثمرة فى أى عمل أدبى أو غير أدبى ٠

ويجعل بعض المستشرقين أســاطير التـوراة عند اليهود وقصـة لقمان هما الملهمتين للبديع بفكره المقـامات ، ويذكر آخر أن قصص جحا فى الآداب الفارسية والعربية والتركية ذات اثر فى نشأة المقامة ، وهـذا كلــه كلام يعوزه الدليـل ، ولا تنهض به الحجة(٨) ٠

ويذهب آخرون الى أن المقامة مقتبسة من أصـل فارسى ، ولكن المنصفين من العرب والفرس ينفون أن تكون المقامات قـد وجـدت فى الأدب الفارسى قبـل بديع الزمان ، اذ لم تعرف المقامة فى الأدب الفارسى

---

(٤) ١ : ٢٣٥ « زهر الآداب » ٠

(٥) « النثر الفنى » لزكى مبارك ٠

(٦) ص ٢٠٧ « بديع الزمان » للشـكعة ٠

(٧) ٢٠ « المقـامة » لشوقى ضيف ـ طبع دار المعـارف ٠

(٨) راجع ١٤٦ « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى » للمؤلـــف ٠

الا بعـد البديع بنحـو قرن ونصف من الزمان ٠٠ فأول مقامات كتبت بالفارسية هى للقاضى حميد الدين البلخى الذى بدأ بكتابتها عام ٥٥١ هـ وتوفى بعـد ذلك بسبع سنوات (٥٥٨ هـ/١١٦٤ م) كما يقول براون ، ويؤكد محمـد تقى بهار(٩) أن المقامة من اختراع البديع ، وأن كل اختراع فى الأدب العربى كان لـه صداه فى الأدب الفارسى ، وأن حميد الدين قلـد البديع والحريرى فى مقاماته ، ويذكـر الأنورى اعجاب الفرس وافتتانهم بمقامات حميد الدين ٠

ان هـذه القصـة الحوارية القصيرة ، ذات المنهج الفنى الملتزم والصياغة الطريفة ، والصيغة الجـديدة ، والفكرة الساسانية ، التى دعيت مقامة ، قـد أنشأها بديع الزمان الهمـذانى لتجابه مطالب الحياة الفنية والأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية المتجـددة فى عصره ٠

ولقـد جعل بديع الزمان لمقاماته بطلا ساسانيا هـو أبو الفتـح الاسكندرى ، وهـو الذى مثل كل أدوارها ، ونهض بجميع فصـولها ، وقـام بكـل احـداثها ٠

وشخصية أبى الفتح ــ كما تبدو من خلال المقامات ــ شـخصية رائعـة حقا ، فهو بطـل للوقف كله فى المقامة ، وهـو ــ كما يصـوره الهمـذانى ــ عالم وأديب وشاعر ، وهـو ناقـد بليغ ، ومغامر محتال ماهر ، مشرد فى الآفاق ، تقسو عليه ظروف الحيـاة فـلا يجـد أمامه الا الكدية والاحتيال بكل أسلوب من أجـل المـال أو الطعام ٠ وهـو الى ذلك كلـه مجرب حكيم خبير بالأيام وصروفها ، عركها وعركته ، يجوب الآفاق ويخطب فى الأندية ويهـز الناس بفصاحته وبلاغته ٠

وكنية أبى الفتح لعـل البديع رمز بهـا الى فتوحات هـذا البطل وانتصاراته فى مواقفه العجيبة فى الكدية ٠

أما وصف الاسكندرى الذى لازمه فقـد يكون معززا لذلك المعنى على أنه نسبة الى الاسكندر ، فتكون فتـوحات أبى الفتـح فى أموال

---

(٩) « تاريخ تطور النثر الفارسى » محمد تقى بهار ٠

الناس شبيهة بفتوحات الاسكندر · وقد يناقض ذلك أن أبا الفتح يكرر فى مقاماته قوله « اسكندرية دارى »(١٠) ، نسبة الى الاسكندرية لا الى الاسكندر الأكبر المقدونى (٢٥٦ ـ ٣٢٣ ق م) ·· ويصح لنا أن نجمع بين الأمرين ، فتكون نسبته الى الاسكندرية مقصودا بها الرمز الى شبهه فى فتوحاته الساسانية بفتوحات الاسكندر التى تنتسب اليه مدينته ·

ويقومنا ذلك الى التساؤل : أى اسكندرية كان يعنى البديع ، وكان ينتسب اليها أبو الفتح الساساني ؟

فى المقامة التاسعة الجرجانية يقول أبو الفتح البطل متحدثا عن نفسه : انى امرؤ من أهل الاسكندرية من الثغور الأموية · وفى المقامة التاسعة والعشرين الحمدانية يقول من الثغور الأموية والبلاد الاسكندرية · ويكرر أبو الفتح نسبته الى الاسكندرية فى مواضع كثيرة أخرى ·

فاذا رجعنا الى ياقوت(١١) وجدناه يذكر أن الاسكندر بنى ثلاث عشرة مدينة سماها كلها باسمه ، ثم تغيرت أسماؤها بعده ، فمنها : اسكندرية مصر ، والاسكندرية التى صار اسمها سمرقند ، والتى صارت مرو ، والتى سميت بعد باسم بلخ ، واسكندرية الأندلس التى على النهر الأعظم ـ نهر اشبيلية ـ وهى التى رجحها الامام محمد عبده لوصف البديع لها بأنها من الثغور الأموية وقد كانت الخلافة الأموية تحكم الأندلس فى القرن الرابع الهجرى عصر البديع ، الا أنى وجدت رحالة عربيا فى القرن الرابع ـ هو ابن دلف ـ يذكر مدينة المنصورة عاصمة السند ، ويقول عنها : ان الخليفة الأموى مقيم بها(١٢) ، فهل كانت هذه المدينة قديما تسمى الاسكندرية أيضا ، ليصبح أمامنا احتمال

---

(١٠) راجع مثلا فى المقامة الأربعين ـ العلمية ـ قول البديع :
اســـكندرية دارى لو قر فيها قرارى
(١١) ٢٣٥/١ معجم البلدان ·
(١٢) هذا النص منقول عن معجم البلدان راجع ٤٠٩/٥ معجم البلدان·

جـديد آخر ، ويذكـر باحـث عراقى أن الاسـكندرية بين بغـداد والحلة(١٣) . ولكن ما صلتها اذن بالثغور الأموية ؟ ٠

ويذهب عبد الوهاب عزام الى أن صحة الكلمة « الآموية » نسبة الى نهر آموى(١٤) – جيحون – وبذلك تكون الاسكندرية المقصودة هى مدينة الاسـكندية على نهر آموى ٠

ومـع ذلك كلـه فلا نزال نسير فى بيداء سحيقة ٠

فمن هـو أبو الفتـح الاسكندرى اذا ؟

١ – هنـاك رأى سـائد أنه شخصية أسطورية خيـالية محضـة ، كشخصية راوى المقامات عيسى بن هشام ، يقول الحريرى فى مقـدمة مقاماته : كلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف ٠ وهـذا ما رجحته منذ عشرين عاما فى كتابى « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر السياسى الثانى »(١٥) ٠ وؤكد ذلك المستشرق الفرنسى ايوار ، فيقول : وضـع البديع شخصا خياليا ابتكره وسماه أبا الفتـح ، وذهب بعض الباحثين الى أن عيسى بن هشام راوية المقامات كان شـيخا للبديع ، ومنهم أبو شجاع شيرويه (٥٠٩ هـ) مؤلف تاريخ همـذان ، وينقـل ذلك عنه ياقوت فى معجم الأدباء ، ولعـل ذلك وهم ناشىء من قـول البديع فى مطلع كل مقـامة من مقـاماته : حـدثنا عيسى بن هشام ٠ ولـو ذهبنا الى أن أبا الفتح هـو الذى كان أستاذا للبديع لكان ذلك أكثر صـلة بالبحث ، وأكبر انطباقا على الموضوع ٠

وممن ذهب الى أن هاتين الشخصيتين خياليتان مؤلف كتاب « بديع

---

(١٣) يعـد رسالة ماجستير عن مقامات الحريرى ، واسمة طارق العوسج وهـو مدرس بمكة المـكرمة منذ سنوات ٠

(١٤) ٢٣٤ بديع الزمان للشـكعة نقـلا عن محاضرات عـزام فى كليـة الآداب عام ١٩٤٤ م ٠

(١٥) ص ١٤٧ الكتـاب المذكـور ٠

الزمان » الدكتور الشكعة الذى يقول : حاولنا أن نجد لبطلى المقامات صدى تاريخيا فلم نعثر لهما على أثر والغالب أنهما من ابتكار خيال البديع نفسه(١٦) ٠

٢ ـ وهناك رأى جديد هو أن شخصيات مقامات البديع كانت لأشخاص وجدوا بالفعل ، ويذهب الى ذلك بعض المستشرقين ، الا أنهم لم يستطيعوا تحديد هؤلاء الأشخاص المجهولين ، ولا الكشف عن شخصياتهم التاريخية ٠

وانا معهم فى ذلك ٠ ولكنى أخطو خطوة جديدة من أجل الكشف عن شخصية أبى الفتح بطل المقامات البديعية ٠

ويذهب باحث عراقى(١٧) سبق الاشارة اليه الى ان أبا الفتح هو البديع نفسه ، ومن قبل قلت ذلك فى كتابى « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى »(١٨) حيث ذكرت أنه قد يكون فى حياة أبى الفتح شىء من صفات البديع نفسه ، وشىء من أخلاقه ، ولكنى أخالف ذلك اليوم ، وستبدو الحقيقة واضحة وكاملة بعد قليل ٠

ويذهب باحث آخر(١٩) الى أن الكدية أو الساسانية التى كانت صناعة أبى الفتح « نجد من أعلامها فى عصر البديع من يشبه أبا الفتح من وجوه كثيرة : كابن الحجاج (ت ٣٩١ هـ) ، وابن سكرة (ت ٣٨٥ هـ) وأبى الورد ، ومن يشبهه من بعض الوجوه كأبى حيان التوحيدى ، بل البديع نفسه . ومن يشبهه كل الشبه كأبى دلف والأحنف العكبرى » ٠٠ ومجمل هذا الرأى أن أشباه أبى الفتح الاسكندرى كثيرون فى عصر البديع ، وأن أقربهم شبها به هو أبو دلف والأحنف ٠ وهذا الرأى لا يأتى لنا بجديد ولا بأمر مؤكد فى البحث على أية

---

(١٦) بديع الزمان ص ٢٣٢ ٠

(١٧) هو طارق عبد الوهاب العوسج يحضر رسالة دكتوراه عن مقامات الحريرى ٠

(١٨) ص ١٥٧ و ١٥٨ الكتاب المذكور ٠

(١٩) ص ٢٣٤ « الأدب فى ظل بنى بويه » للزهيرى ـ طبع مصر ١٩٤٩ ٠

حال ، فلم يجزم هـذا الباحث برأى معين لـه • وهـذا رأى الدكتـور محمد غنيمى هـلال وأضاف اليه أن أبا دلف قـد يكون أقرب الى شخصية أبى الفتـح(٢٠) •

٣ - ورأيى الذى أذهب اليه اليوم هـو أن أبا الفتـح انما هـو شخصية تاريخية معروفة فى عصر البديع ، وهـو أبو دلف الخزرجى وحـده •

وهـذا الرأى لا يسبقنى فيه باحث ، وبه ينفتح الباب أمامنا لفهم كثير من حقائق الأدب فى القرن الرابع • ودليلنا عليه هـو ما قالـه الثعالبى فى « يتيمة الدهر »(٢١) قال :

انشدنى بديع الزمان لأبى دلف ، ونسبه فى بعض المقـامات الى أبى الفتـح الاسـكندرى :

ويحـك هـذا الزمان زور فـلا يغـرنك الغـرور(٢٢)

لا تلـتزم حالـة ولكـن در بالليـالى كمـا تدور

ومن هـذا النص نعرف الحقـائق الآتية :

١ - انشـد البديع الثعالبى شـعرا لأبى دلف •

٢ - وهـذا الشعر نفسه نسبه البديع فى مقاماته الى أبى الفتح ، فتكون النتيجة هى أن أبا الفتح هـو أبو دلف نفسه باقرار البديع •

٣ - كان البديع راوية لشعر أبى دلف ، ويبدو لى أن البديع كان ينزل أبا دلف من نفسه منزلة الأستاذ والمعلم •

---

(٢٠) النماذج الانسانية فى الدراسات الأدبية المقارنة للدكتور غنيمى •

(٢١) ٣ : ٢٥٤ اليتيمـة •

(٢٢) هـذا الشعر فى المقامة القريضية احـدى مقامات البديع •

واذن يكون امامنا رأى جـديد نجزم به ، هـو أن البديع حين كتب مقاماته اختار أبا دلف أستاذه وصـديقه ومعاصره بطلا للمقامات ، وكنى عنه بأبى الفتـح ، وكان أبو دلف أروع نموذج ساسانى يصلح بطـلا للمقامات ، لأن حياته وشخصيته وتجاربه مطابقة تمام المطابقة للنموذج الذى صوره البديع فى المقامات فى شخص أبى الفتـح الاسكندرى ، ولأن شهره وتجارب أبى دلف كانت تصلح معينا يستقى منه البديع كل ما يريد أن يصور به ابا الفتـح وذلك ما قـد كان ٠

بل انى اضيف الى ذلك أن البديع الهمـذانى حين سمع قصص ابى دلف الشيخ الحكيم المجرب عن رحلاته وتطوافه فى البلاد ، واستمع الى فكاهات هـذا الشيخ وسمره فى مجالس المـلوك والأمراء والوزراء رأى ان هـذه الصورة الفنية تصلح أساسا لفـن جـديد ابتـكره وسماه « المقامة » ، فكان أبو دلف هـو الملهم للبديع الشاب الذكى بابتكار فـن المقامة فى الأدب العربى ، فى القرن الرابع ، وفى عصر أبى دلف ٠

فمـن طـرو أبو دلف هـذا اذن ؟

يقـول صاحب كتـاب « النمـاذج الانسانية »(٢٣) :

على أن ثمـة شخصية تاريخية واقعيـة استمد منهـا الهمـذانى نموذجة الأدبى ، وهـو الشاعر أبو دلف وكان معاصرا لبديع الزمان ، وكان البديع يعجب به ويستدعيه الى مجلسه ويحسن اليه ٠٠ وهـذا الرأى اخـذه على ولم ينسبه صاحب الكتـاب لى ، مجـافاة للأمانة العلميـة ٠

---

(٢٣) القيت بحثا عن شخصية أبى الفتح وانه هـو ابو دلف عـام ١٩٧٠ فى محاضرة عامة عام ١٩٧١ ، ونشر فى الرياض فى كتاب بعنوان « أبو دلف » عام ١٩٧١ ، وبعـد ذلك صـدر كتـاب « النماذج الانسانية » بسنوات ممـا يدل على سـبقى بالرأى ٠

ومـع ما فى هـذه الجملة من ذهاب الى ما قلناه من أن أبا دلف هـو أبو الفتـح الاسكندرى بطـل مقامات البديع فان فيها على قصرها أخطـاء كثيرة :

١ ـ قـوله « وكان أبو دلف معـــاصرا لبديع الزمان » ، الأولى أن يقـال : وكان البديع معاصرا لأبى دلف لأن أبا دلف كان قـد بلغ الستين فى حين كان البديع ابن عامين ٠

٢ ـ قـوله : وكان ـ أى بديع الزمان ـ يستدعيه ـ أى أبا دلف ـ الى مجلسه ، أليس الأولى العكس ؟ أيستقيم أن يذهب شيخ عظيم كبير السن كأبى دلف الى شـاب صغير ٠

٣ ـ قوله « وكان ـ أى البديع ـ يحسن اليه ـ أى الى أبى دلف ـ أيستقيم ذلك مـع مكانة أبى دلف عند عضـد الدولة والصاحب عبـاد وعظماء الدولة بينما كان البديع شابا يسعى للوصول الى مراكز النفـوذ فى الدولـة ؟

الفصل الثانى

الصاحب وأبو دلف

بين الصـاحب وأبى دلـف(١)

الصاحب ذو القعـدة ٣٢٦ هـ : ٩٣٨ م - ٢٤ من صفر ٣٨٥ هـ : ٣١ مارس ٩٩٥ م ٠

- ١ -

لم يبلغ أحـد من الأدباء وحملة رسالة القلم ما بلغـه الصاحب ابن عباد ، من المجـد والنفـوذ وذيوع الصيت ، وكان - كما يقـول ابن خلكان - : « نادرة الدهر ، وأعجـوبة العصر ، فى فضـائله ومكارمه وكرمه »(٢) ، وكما يقول فيه الثعالبى : هـو صـدر الشرق ، وتاريخ المجـد ، وغـرة الزمان ، وينبوع العـدل والاحسان »(٣) ٠

وقـد كرم الصاحب فى حياته ووفاته تكريما لم يبلغـه أحـد من الأدباء وخلـد على صفحات التاريخ ، مجـدا سـامقا ، وأدبا رفيعـا وذكرى مرددة على الأيام ٠

- ٢ -

ولـد الصاحب اسماعيل بن عبـاد بن العباس بن عبـاد فى ذى القعـدة من سنة ٣٢٦ هـ : ٩٣٨ م فى طالقـان ، وهـو اقليم من أقاليم ايران ، بين قزوين وأبهر ، من أسرة فارسية(٤) رفيعة النفوذ والسلطان، فى خلافة الراضى العباسى (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) ، فرعاه أبواه بحنانهما وعطفهما رعـاية فائقـة ٠

ومضت أيام طفولته الأولى ، والخلافة العباسـية تعصف بهـا العواصف ، فمات الراضى وخلفه المتقى (٣٢٩ - ٣٣٣ هـ) ثم المستكفى

---

(١) ٧٥ من كتابى الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى (خفاجى) ٠

(٢) ١ : ٧٥ وفيـات الأعيـان ٠

(٣) ٣ : ١٩٢ يتيمة الدهر للثعالبى تحقيق محى الدين عبد الحميد ٠

(٤) ٦ : ١٩٩ كتاب معجم الأدباء لياقـوت - نشر رفاعى ٠

(٣٢٣ - ٣٣٤ هـ) ، وفى عهده زاد خطر الدولة البويهية فى فارس ، وزحف معز الدولة البويهى على بغداد ، بجيوش كثيفة ، واستولى عليها عام ٣٣٤ هـ : ٩٤٦ م ، وخلع الخليفة ، وولى مكان المطيع لله العباسى (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ) ، وسلب الخليفة سلطانه ، وتولى حكم العراق بالنيابة عنه ، ولم يبق للخليفة ذكر الا أن يردد اسمه فى الخطب ، وتجبى باسمه الأموال للبويهيين ، عماد الدولة أخو معز الدولة حكم فارس والأهواز ، كما تولى أخوهما الثالث ركن الدولة الحكم فى الجبل والرى ، وامتد نفوذه على جرجان وطبرستان ..

اما اقليم خراسان وما وراء النهر فكان فى نفوذ السامانيين الذين اتخذوا بخارى عاصمة لهم ، وكانوا يتمتعون باستقلال تام ، وان خطبوا للخليفة العباسى على المنابر ... وكان اقليم الجزيرة والشام فى أيدى الحمدانيين ، ومصر فى نيل الأخشيديين ، والشمال الأفريقى تحت سيطرة الفاطميين والأندلس فى حكم الأمويين وملكهم عبد الرحمن الناصر (٣١٠ - ٣٥٠ هـ) .

وكان قيام الدولة البويهية محاولة من العناصر الفارسية لاسترداد نفوذهم وسلطانهم فى دولة الخلافة من أيدى الأتراك ، وقضاء على النفوذ التركى فى العالم الاسلامى . وبقيام هذه الدولة خضعت الخلافة العباسية لسلطانهم وهيمنتهم على العالم الاسلامى باسم الخلافة والخلفاء(٥) .

ولما مات معز الدولة عام ٣٥٦ هـ(٦) خلفه فى حكم العراق ابنه عز الدولة البويهى (٣٥٦ - ٣٦٧ هـ) ، ثم عضد الدولة بن ركن الدولة (٣٦٧ - ٣٧٢ هـ) باخوته : صمصام الدولة بن ركن الدولة (٣٧٢ - ٣٧٦ هـ) ، فشرف الدولة (٣٧٦ - ٣٧٩ هـ ، فبهاء الدولة البويهى (٣٧٩ - ٤٩٣ هـ) .

---

(٥) ٢٤٩ و ٢٥٠ الآداب السلطانية للفخرى .

(٦) فى هذا العام نفسه مات : سيف الدولة الحمدانى ، وكافور الاخشيدى ، وأبو الفرج الأصفهانى صاحب كتاب الاغانى ، وأبو على القالى صاحب كتاب الأمالى .

وفى عهد عز الدولة خلع الخليفة المطيع لله ، وولى مكانه الطائع العباسى (٣٦٣ - ٣٨١ هـ) الذى خلعه بهاء الدولة البويهى أيضا ، حيث جره أحد قواده من سرير الخلافة ، والخليفة يقول : - انا لله وانا اليه راجعون » • وفى ذلك يقول : الشريف الرضى :

من بعد ما كان رب الملك مبتسما   الى أدنوه فى النجوى ويدنينى

أمسيت ارحم من اصبحت اغبطه   لقد تقارب بين العز والهون

ومنظر كان بالسراء يضحكنى   يا قرب ما عاد بالضراء يبكينى

هيهات اغتر بالسلطان ثانية   وقد ضل ولاج أبواب السلاطين(٧)

واختار بهاء الدولة القادر بالله العباسى خليفة مكان المطيع (٣٨١ - ٤٢٢ هـ) •

وقد نشر النفوذ البويهى سلطان الشيعة والعلويين والاعتزال •• وكان للصاحب ابن عباد مجالس يذظر فيها خصوم المعتزلة ويدعم حججهم(٨) •

وفى العهد البويهى نهض الأدب ، كثرت عواصمه ، ونبغ كبار الأدباء والشعراء ، كابن العميد (٣٦٠ هـ) ، والصاحب (٣٨٥ هـ) ، والخوارزمى (٣٨٣ هـ) ، والبديع الهمذانى (٣٩٨ هـ) ، والصابى (٣٨٤ هـ) ، والقاضى الجرجانى (٣٩٢ هـ) صاحب الوساطة ، والآمدى (٣٦١ هـ) صاحب الموازنة ، وأبى هلال العسكرى (٣٩٥ هـ) صاحب الصناعتين ، ومثل المتنبى (٣٥٤ هـ) ، والشريف الرضى (٤٠٦ هـ) ، ومهيار (٤٢٨ هـ) ، والمعرى الحلبى (٤٤٩ هـ) ، وسواهم من أعلام الأدب والنقد والبيان والشعر •

---

(٧) ديوان الشريف الرضى - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد •

(٨) ٦ : ٢٠٩ - ٢١٢ و ٢٨٠ معجم الأدباء •

وقـد تنافس المـلوك والأراء والوزراء والولاة فى تشجيع الأدب ورعاية الشعراء • ولابن العميد والصاحب والمهلبى أثر كبير فى ذلك ، وكان ابن سـعدان وزير صمصام الدولة يشجع الفلاسفة والمفكرين كأبى حيان وأستاذه أبى سليمان المنطقى ، وكان شابزر بن أردشير وزير بهاء الدولة يحتفى بالثقافة والأدب ، وكان ابن العميد يميل الى العلم من حيث كان الصاحب والمهلبى يميلان الى الأدب ، وابن العميد أعقـل ويدعى الكرم ، والصاحب أكرم ويدعى العقل كما يذكر أبو حيان(٩) •

وكانت هـذه الثورة السياسية وما صحبها من تيـارات مذهبية وعقلية وأدبية هى البيئة العـامة التى عاش فيها الصاحب وتأثر بها ، وأثر فيهـا •

- ٣ -

وكان عباد والد الصاحب عالمـا أديبـا كتب لركن الدولة البويهى ، الذى شمل نفـوذه الجبل والرى وجرجان وطبرستان ، وكانت حاضرة ملكه هى الرى ، وتولى عباد الوزارة لـه ، وألف كتـــابا فى أحكام القرآن ، نصر فيـه الاعتزال وجـود فيه(١٠) •

وكان هـو الأستاذ الأول لابنه اسماعيل ، الذى لقب فيما بعـد بالصاحب • وقـد عاش هـذا الأب العظيم عمراً طويلا ، ومات فى السنة التى مات فيها ابنه ، وهى عام ٣٨٥ هـ • ويذكر ابن خلـكان وغيره أنه توفى عام ٣٣٤ هـ أو ٣٣٥ هـ(١١) ، والظاهر أن ذلك تحريف •

وهكذا نشأ الصاحب فى الرى فى بيت سيادة ومجـد ، حتى قال

(٩) ٦ : ٢٢٧ معجم الأدباء •

(١٠) ٦ : ١٧٢ معجم الأدباء نقـلا عن كتـــاب « المنتظم فى التاريخ » لابن الجـوزى •

(١١) ١ : ٧٥ و ٧٦ وفيات الأعيان ، وسلم الوصول ورقة ١٦٦ (مخطوط بدار الكتب المصرية) •

أبو بكر الخوارزمى فيه : « الصاحب نشأ من الوزارة فى حجرها ، ودب ودرج من وكرها ، وورثها من أبيه »(١٢) ٠

وعاشت أم الصاحب عمرا طويلا كذلك ، حتى توفيت عام ٣٨٤ هـ(١٣)

- ٤ -

تتلمذ الصاحب على صديق أبيه الحميم ، أبى الفضل بن العميد ، وزير ركن الدولة ، وشيخ الأدباء والكتاب فى عصره ٠ و « عماد ملك آل بويه وصدر وزرائهم ، وأوحد العصر فى الكتابة » ، والكثير من الأدباء جلسوا منه مجلس الطلاب من الأستاذ ، فأعجبوا به ، وجاوروه وقلدوه ، واتسموا بطابعه ، وجروا فى نهجه ، وقبسوا من ناره ، واغترفوا من بحره ، وساوروا فى طريقه ترسما وترسن(١٤) ٠ وطالت صحبة ابن عباد لأستاذه ، فسمى صاحب ابن العميد ، وأطلق عليه هذا اللقب ٠ وقد مدح الصاحب أستاذه بقصائد شعرية كثيرة(١٥) ، وكانت مجالس ابن العميد يحضرها العلماء والأدباء والمتكلمون للمناظرة(١٦) ، وكان الصاحب يعده أستاذا ووالدا وابن العميد ينزله من نفسه منزلة الابن والتلميذ(١٧) ٠

ومن أساتذة الصاحب كذلك ابن فارس ، وكان ابن فارس يبعث للصاحب بكتبه والصاحب يصله ويقدره(١٨) ٠

وكذلك تتلمذ على أبى سعيد السيرافى(١٩) ، وشاهد هذا

(١٢) ٣ : ١٩٤ يتيمة الدهر ٠
(١٣) ٦ : ٢٣٨ معجم الأدباء ٠
(١٤) ٣ : ١٥٨ يتيمة الدهر ٠
(١٥) ٣ : ١٢٩ المرجع ٠
(١٦) ٣ : ١٦١ - ١٦٣ المرجع ٠
(١٧) ٣ : ١٩٧ المرجع ٠
(١٨) ٦ : ٢٢١ معجم الأدباء ٠
(١٩) ٣ : ٢٠٤ اليتيمة ٠

الأستاذ الكبير من نبوغة ما حببه اليه ، وعلى أبى بكر بن مقسم تلميذ ثعلب(٢٠) ، وعلى القاضى ابى بكر بن كامل من كبار رواة المبرد وثعلب والبحترى وأبى العيناء(٢١) • وكان يتردد على مجالس المتكلمين وأهل النظر بالعراق ، من مثل أبى زكريا يحيى بن عدى وغيره(٢٢) •

وشهر الصاحب بالعلوم ، وأخذ من كل من منها بالنصيب الموفور ، والحظ الزائد الظاهر ، ووهب من الفصاحة وحسن السياسة والأدب الرفيع ما وهب(٢٣) •

وكان كثير المحفوظ ، حاضر الجواب ، فصيح اللسان ، قد أخذ من كل فن بطرف ، وحصل من كل أدب محصولا كثيرا ، وقرأ كتب المعتزلة ووعاها ، فغلب عليه كلامهم ، وكتابته سائرة على منهجهم وطريقهم ، وكان شديد التعصب على أهل الفلسفة وعلومها والناظرين فى كتبها(٢١) •

وثقافته فى العروض والقوافى واسعة ، وألف فيهما ، وكان يتشيع بمذهب أبى حنيفة وفقه الزيدية(٢٥) • ويكتب الرسائل البليغة ويقول الجيدة ، وحصل الحديث وتفوق فيه(٢٦) ، وكانت لديه مكتبة ضخمة(٢٧) ، وطارت شهرته ، وذاع صيته أديبا وكاتبا مجودا •

- ٥ -

وقرب ابن العميد تلميذه من الأمير مؤيد الدولة بن ركن الدولة

---

(٢٠) ٦ : ٢٧٦ - ٢٧٩ معجم الأدباء •
(٢١) ٦ : ٢٧٩ المرجع •
(٢٢) ٢٧٩ : ٢٨٠ المرجع •
(٢٣) راجع ٦ : ١٧١ المرجع •
(٢٤) ٦ : ١٧٤ و ١٧٥ المرجع •
(٢٥) ٦ : ١٧٥ المرجع •
(٢٦) ٦ : ٢٥١ المرجع •
(٢٧) ٦ : ٢٥٩ معجم الأدباء •

البويهى ، وكان ينـوب عن والده فى اعمال الدولة وسياستها • ويصـف لـه ابن العميد ذكاء الصاحب ومواهبه ، فاتخـذه كاتبا لـه(٢٨) ، واجتهد الصاحب فى الاخلاص لـه ، وانس منه الأمير كفاية ومواهب جمـة ، فقربه اليه ، ولقبـه بالصاحب كافى الكفاة ، فلما مات ركن الدولة عام ٣٦٦ هـ ، وتولى ابنـه مؤيد الدولة امور الملك بالرى وأصبهان وأنحـاء المملكة أبقى أبا الفتـح بن أبى الفضل ابن العميد فى وزارته ، كما كان فى عهد أبيـه • ولما أقصى هـذا الوزير اتخـذ مكانه الصاحب وزيرا • ومات مؤيد الدولة ، فسعى الصاحب ، حتى جاء بأخيـه فخـر الدولة البويهى (٣٤١ - ٣٨٧ هـ) مكانه وذلك عام ٣٦٧ هـ ، فاقر الصاحب فى الوزارة ، ولكن ابن عباد رأى بنظره وثاقب رأيه وحنكته السياسية ، أن يطلب من فخر الدولة اعفاءه من منصبه ليختار مكانه من يريد لخدمته، فأبى فخر الدولة أن يعفيه من عمله وقال لـه : لك فى هـذه الدولة من ارث الوزارة ما لنـا فيها من ارث الامارة فسبيل كل منـا أن يحتفظ بحقـه(٢٩) • ظـل الصاحب وزيرا لفخر الدولة ثمانية عشر عاما •

- ٦ -

نشر ابن عبـاد بنفـوذه وسـلطانه مذهب المعتزلة فدخـل النـاس فيه ، ومالوا اليه ، رغبـة فى مرضاته(٣٠) • وكانت أيامه توطيـدا لنفوذ العلويين(٣١) ، وكان متعصبا للشيعة ، ناقما على معاوية يذكر ذلك فى شعره(٣٢) ، وذهب الى القـول بالاختيـار وتسفيه الجبرية والجـبريين(٣٣) •

واخلص لدولة البويهيين كل الاخلاص ، حتى لقد حاول السامانيون أن يصير الصاحب اليهم ، فأبى وفاؤه ذلك ، وقال : كيف يحسن لى أن

---

(٢٨) راجـع ٦ : ٢٢١ - ٢٢٤ المرجـع السابق •
(٢٩) ٣ : ١٩٤ اليتيمـة ، ٦ : ١٧٤ معجم الأدباء •
(٣٠) ٦ : ٢٥٥ معجم الأدباء •
(٣١) ٣ : ١٩٢ اليتيمـة •
(٣٢) ٣ : ٢٧٧ المرجـع نفسـه •
(٣٣) راجـع شعرا لـه فى ذلك فى المرجـع نفسه (٣ : ٢٧٦) •

أفارق قــوما بهم ارتفع قــدرى ، وشاع بين الأنام ذكرى(٣٤) · وكان فخــر الدولة يثــق به ، ويجــله واذا رأى رأيا ورأى الصــاحب غيره ، امتثل لرأى الصاحب وترك رأيه(٣٥) ، وكان فخر الدولة كذلك يحــله محــل الوالد اكراما واعظاما ، ويخاطبه بالصاحب فى حــديثه ورسائله ، وقــد التزم رجال الدولة وقــوادها مــع الصاحب الادب والطــاعة حتى كانوا يرتعــدون عند رؤية أحــد من حجابه وحاشيته(٣٦) · وكان الصاحب يلتزم بالعــدل مــع الشعب(٣٧) ·

ولــا توفيت أم الصاحب عام ٣٨٤ هـ باصبهان وورد عليه الخبر ، جلس للعزاء ، وركب اليه سلطانه وولى نعمته ، فخر الدولة ، معزيا ، ونزل وجلس عنده طــويلا يعزيه ويسكن من لوعتــه وفعل ذلك ســائر الأمراء وكبــار القــواد(٣٨) ·

وبعــد ذلك بقليل زوج سبطه عبــاد بن على بن الحسين الحسنى الهمــذانى عام ٣٨٤ هـ بكريمة أحــد أقرباء فخر الدولة(٣٩) فبعث اليه هــذا الملك بأموال ضخمة حملها أحــد أصحابه الكبار ، وقــدم القــواد ورجالات الدولة عليه مهنئين واقفــين بين يديه مبجلين معظمين(٤٠) ، ومدحــه الشعراء بهــذه المناسبة ·

وفى يوم من الايام استجار خال فخر الدولة بالصاحب ليحميه من غضبة الملك عليــه ، فلم يقبــل أن يجيره الا بعــــد أن يستعطف الملك ويترضاه(٤١) · وكان أقارب فخر الدولة من الأمراء وكذلك كبــار قواده يحضرون الى قصر الصاحب فيقفـــون أمامه مطرقين الى أن يؤذن لهم

---

(٣٤) ٦ : ٢٥٩ معجم الأدباء ، وراجــع ٣ : ١٩٧ اليتيمــة ·
(٣٥) ٦ : ١٧٤ معجم الأدباء ·
(٣٦) ٦ : ٢٤٧ المرجـــع ·
(٣٧) ٦ : ٢٤٨ المرجـــع ·
(٣٨) ٦ : ٢٣٨ و ٢٣٩ المرجـــع
(٣٩) ٣ : ٢٤٢ اليتيمـــة ·
(٤٠) ٦ : ٢٤٠ معجم الأدباء ·
(٤١) ٦ : ٢٤١ ـ ٢٤٢ المرجـــع ·

فى الدخــــول فيكون ذلك شرفا للواحــد منهم ، فاذا دخـــل الى مجلس الصاحب قبـل الارض بين يديه ، ولا ينصرف الا بعــد أن يقبــل الأرض كذلك مرارا ، ولم يكن الصاحب يقوم لأحد ، ولا يهم بالقيام ، ولا يطمع منه أحــد فى ذلك(٤٢) . وكان رؤســـاء البويهيين وأمراؤهم عندما يسير الصاحب يعــدون بين يديه وكان عضد الدولة فى رسائله اليه يجـــله ويعظمـــه(٤٣) .

وقــد كان الصاحب موفقا فى سياسته كل التوفيق ، فتــح خمسين حصنا ، وأضافها الى ملك فخر الدولة(٤٤) . وبلغ غاية لم يبلغها أحــد من أقرانه ، وكأن يقول : ما تقى من أوطـــارى وأغراضى الا أن أملك العراق ، وأتصــدر ببغــداد وأستكتب الصـــابى ، ويكتب غنى ، وأغير عليـــه(٤٥)

وفى شـــباب الصاحب كان انصرافه الى مجالس العـــلم وأندية الأدب ، أما فى أخريات حياته فكانت السياسة تصــده عن ذلك ، وتدبير الملك يقتضيه السهر فى حياطته ورعايته ، وقــد نجح فى ذلك أيمـــا نجاح ففتح الفتــوح ، وذلل الصروح ووطىء الرقاب ، وأدرك الثأر ، واصطنع الرجال ، كما يقول الصاحب نفسه من رسالة لــه الى ســديقه فى الأدب أبى العلاء الأســدى(٤٧) ، وفى هــذه الرسالة يؤكد أن أعباء ، السياسية قــد أثرت على صحته ، ومتاعب الحكم قــد أوهت من قــوته ، وفيها يذكر بيتين من شــعره لهمـــا دلالتهما وهما :

وقائلة : لم عــرتك الهمــوم وأمــرك ممتثل فى الأمـــم

فقلت : دعينى وما قــد عرا فــان الهمــوم بقــدر الهمـــم

---

(٤٢) ٦ : ٢٤٥ و ٢٤٦ المرجـــع .
(٤٣) ٦ : ٢٨٠ المرجـــع .
(٤٤) ٦ : ٢٥١ المرجـــع .
(٤٥) ٦ : ٣٠٦ المرجـــع .
(٤٦) راجع هــذه الرسالة الخطيرة فى ٦ : ٢٩٥ - ٢٩٩ المرجـع .
(٤٧) ٦ : ٢٨٤ و ٢٨٥ المرجـــع .

وقــد صرح بأنه كتب هــذه الرسالة وسنه تزيد على الخمسين ، وأرجح أنه كتبها نحــو عام ٣٨٠ هـ ٠

لم ينجب الصاحب غير بنت واحــدة زوجها لعــلى بن الحسين الهمــذانى الحسنى وكان كاتبا وشاعرا بليغــا ، وقــد أنجبت ابنتــه ولــدا سماه جــده (عبادا) واحتفى بمولده أيمـا احتفاء وقال فيه :

أحمـــد الله لبشـــرى أقبـــلت عنـــد العشـــى

ان حبـــانى الله سبطا هـــو ســـبط للنبـــى

مرحبـــا ثمـــت أهـــلا بعـــلام هاشـــمى

نبـــوى علـــوى حســـنى صـــاحبى(٤٧)

وقــد هنــأه الشعراء بمولده بقصائد كثيرة(٤٨) ، وبعــد أن كبر هــذا الطفل وبلغ مبلغ الشباب زوجــه جــده من كريمة أحــد أقرباء فخر الدولة(٤٩) ، وهى ابنــة أبى الفضل الداعى ، وهنأ الشعراء الصاحب كذلك بهــذه المناسبة الجميلة ٠

وحين بنى الصاحب قصرا لــه بأصبهان ، أقبل الشعراء عليــه يهنئونه بقصائد من جيد الشعر وأعــذبه(٥٠) ٠

وذلك كله يدل على مجــده ونفــوذه الكبير فى الدولة ٠

— ٧ —

وقــد رعى الصاحب النهضة العلمية والأدبيـــة فى بلاده رعاية

---

(٤٨) راجــع ٦ : ٢٨٦ المرجع ، ٢ : ٢٤٠ — ٢٤٢ اليتيمة ٠
(٤٩) ٣ : ٢٤٢ اليتيمـــة ٠
(٥٠) ٣ : ٢٠٧ — ٢١٨ المرجـــع ٠

فائقة ، وأغدق على العلماء والأدباء والشعراء ، فكان يرسل الأموال الجمة اليهم والى الكثير من المحتاجين من أهل الشرف والفقهاء والزهاد والكتاب ببغداد والحرمين ، كل سنة ، مع ركب الحج ، على مقاديرهم ومنازلهم ، ويقول الثعالبى فيه : كانت أيمه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضلائهم، ومترع آمالهم وأمواله مصروفة اليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، جلب اليه من الآفاق ، وأقاصى البلاد ، كل خطاب جزل ، وقول فصل ، واحتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى ، وملك رق المعانى ، فانه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء .
وجمعت حضرة الصاحب بأصبهان والرى وجرجان مثل : أبى الحسين السيمى ، وأبى بكر الخوارزمى ، وأبى طالب المأمونى ، وأبى الحسن البديهى ، وأبى سعيد الرستمى وأبى القاسم الزعفرانى ، وأبى العباس الضبى ، والقاضى الجرجانى ، وأبى القاسم بن أبى العلاء وأبى محمد الخازن ، وأبى هاشم العلوى ، وأبى الحسن الجوهرى ، وبنى المنجم ، وابن بابك ، وابن القاشانى والبديع الهمذانى ، واسماعيل الشاشى ، وأبى العلاء الأسدى ، وأبى الحسن الغويرى وأبى دلف الخزرجى ، وأبى حفص الشهرزورى وأبى معمر الاسماعليى ، وأبى الفياض الطبرى ، وغيرهم ومدحه مكاتبة : الرضى والصابى وابن حجاج وابن سكرة وابن نباتة .

مدح الصاحب خمسمائة شاعر من أرباب الدواوين ، وكان من قضائه قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد(٥١) . وقال الصاحب : مدحت بمائة ألف قصيدة شعر عربية وفارسية وقد انفقت أموالى على الشعراء والأدباء والزوار والقصاد ، وما سررت بشعر ، ولا سرنى شاعر ، كما سرنى الرستمى بقوله :

---

(٥١) ٦ : ٢٥٧ معجم الأدباء .

ورث الوزارة كابرا عن كابر مرفـوعة الاسـناد بالاسـناد
يروى عن العباس عباد وزا رته واسماعيل عن غباد(٥٢)

ولا شـك أن الصاحب اثر بذلك فى النهضـة الأدبية فى بلاده تأثيرا كبيرا وخطيرا ٠

ـ ٨ ـ

كان الصاحب ـ كما قيـل فيه ـ يجمع بين الرأفـة والبطش ، والناس يهابونه ويجلونه لاقتداره وطبشه ٠ وكان وقـورا محبوبا من العامة والخاصة ، والى جانب ذلك كان جوادا سخيا ، لا تخلو داره فى كل ليلة من ليالى رمضان من ألف نفس يجلسون على مائدته فى الافطار ، وكانت صلاته وخيراته فى هـذا الشهر تبلغ ما ينفق منها فى جميع شهور السنة(٥٣) ، ولا يقـل ما يبـذله كل عام من صلات الأشراف وأهـل العلم ووجـوه الخير عن مائة ألف دينار(٥٤) ٠٠ وكانت لـه من أسباب الهيبة ما يعجز الكاتب عن وصفه(٥٥) ٠ وفيه وفى ابن العميد يقـول خصمهما اللدود أبو حيان التوحيدى : كانا كبيرى زمانهما ، واليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعت شمس الفضل ، وبهما ازدانت الدنيا(٥٦) ٠

ومع ذلك فقـد هجاهما التوحيدى فى كتابه « مثالب الوزيرين » هجاء مرا ، وألصق بهما التهم جزافا ، وكال لهما الهفوات بغير حساب٠ وهجا بعض الشعراء الصاحب هجاء مقـذعا(٥٧) ، كأبى العلاء الأسدى،

(٥٢) ٦ : ٢٦٣ المرجـع ٠
(٥٣) ٣ : ١٩٧ اليتيمـة ٠
(٥٤) ٦ : ٢٤٩ معجم الأدباء ٠
(٥٥) ٦ : ٢٤٨ المرجـع ٠
(٥٦) ٦ : ٢٣٢ المرجـع ٠
(٥٧) ٣ : ٢٨١ اليتيمـة ٠

والنويرى ، والخوارزمى والسلامى(٥٨) ٠

ـ ٩ ـ

وترك الصاحب مؤلفات كثيرة منها :

١ ـ كتاب المحيط باللغة فى عشرة مجلدات ، ومنه نسخة خطية عثر عليها فى لندن فى المتحف البريطانى ، ونسخة فى مكتبة المجمع العلمى العراقى ببغداد تقع فى مجلدين كبيرين ، وكاتبها هو الشيخ محمد السماوى عن نسخة كتبت للسيد على خان المدنى صاحب السلافة ٠

٢ ـ كتاب الكافى فى الرسائل ٠

٣ ـ ديوان رسائل الصاحب ـ عشرة مجلدات ، وقد طبعت مختارات منها ٠

٤ ـ كتاب الزيدية ٠

٥ ـ كتاب الأعياد وفضائل النوروز ٠

٦ ـ كتاب فى تفضيل على بن أبى طالب ٠

٧ ـ كتاب الوزراء ٠

٨ ـ عنوان المعارف فى التاريخ ٠

٩ ـ الكشف عن مساوىء المتنبى فى شعره وهو مطبوع ، وقد نقد الصاحب فيه شعر المتنبى ، وكان يتحامل على المتنبى لأنه لم يقصد اليه فى الرى ولم يمدحه مع أنه مدح ابن العميد ، وكان الصاحب قبل وفاة المتنبى عام ٣٥٤ هـ لا يزال شابا ولم يكن له آنذاك كبير الخطر ، ولا شهرة فى السياسة ، ولعل ذلك هو ما جعل المتنبى لا يقصده ولا يقول فيه شيئا من الشعر ٠

---

(٥٨) يتيمة الدهر للثعالبى ـ ج ٣ ٠

١٠ – كتـاب مختصر أسماء الله تعالى وصفاته ٠

١١ – كتـاب العروض الـكافى ٠

١٢ – كتـاب نقض العـروض ٠

١٣ – كتـاب جـوهرة الجمهـرة ٠

١٤ – كتـاب نهـج السبيل فى الأصـول ٠

١٥ – أخبـار أبى العينـاء ٠

١٦ – تاريخ الملك واختلاف الدول ٠

١٧ – وهـذا كله بالاضافة الى ديوان شعره ، وهـو مطبوع ، وقد صـدرت طبعة جـديدة منه من مكتبة النهضة ببغـداد بتحقيق محمـد حسن آل ياسـين ٠

١٨ – وينسب ياقوت اليه كتابا عنوانه « كتاب الزيدين » ولعله هو كتـابه الزيدية فحرف ٠

- ١٠ -

ظـل الصاحب وزيرا لفخر الدولة اكثر من ثمانية عشر عاما ومات وهـو يخطو الى الستين ، فى الرابع والعشرين من صفر عام ٣٨٥ هـ(٥٩) ٣١ من مارس عام ٩٩٥ م ومات بعـده فخر الدولة بعامين ٠

وقـد اهتزت مدينة الرى وهى تشيع جثمان الوزير الأديب الى مرقـده الأخير ، وسار امام النعش فخر الدولة وكبار القـواد والأمراء ، وقعـد بنفسه للعزاء أياما(٦٠) ٠ وبكاه الشـعراء بكاء مؤثرا(٦١) ، فقال فيه : أبو القاسم الأصبهانى :

---

(٥٩) ٣ : ٢٨٣ اليتيمة ٠

(٦٠) ٦ : ١٦٩ و ٢٧٥ معجم الأدباء ٠

(٦١) ٣ : ٢٨٤ – ٢٩٠ اليتيمة ، ٦ : ٢٦٣ و ٢٩٤ و ٢٩٥ معجم الأدباء ٠

ما مت وحدك لكن مات من ولدت حواء طرا ، بل الدنيا ، بل الدين

تبكى عليـك العطايا والصلات كما تبكى عليـك الرعـايا والسلاطين

وقال فيــه الشريف الرضى من قصيدة طـويلة :

هــلا أقالتـــك الليالى عثرة يا من اذا عثر الزمان اقالا

ان نكس الاسلام بعدك رأسه فلقد رزى بـك موئلا ومآلا

كان الغريبة فى الزمان فاصبحوا من بعـد غارب نجمـه أمثالا

وهكذا طويت هــذه الصفحة البيضاء وختم ســجل تلك الحيـــاة الحافـلة بالمجـد والعبقرية ٠

- ١١ -

١ - كانت كل الأسباب تدفع بالصاحب الى النبوغ فى الأدب : عصره،ونشأته العلمية والأدبية،وأساتذته من أمثال : ابن العميد والسيرافى وابن فـارس ، وبيتـه ومناصـبه التى تقلـدها ، وحلقـات العلم والأدب ومناظراتهما التى خاضها ، والكتب التى قرأها ، ورغبته فى أن يحتل منزلة ابن العميد ، وأن تحتل الرى منزلة كبغـداد فى قيـادة النهضـة الأدبيـــة وتوجيههـــا ٠

كل ذلك كان عاملا فى تفجر مواهبه ، وانطلاق ملكاته ، وانبثـــاق ينأبيــع شــاعريته ، فكان أديبا كاتبـا بليغـا ، وشــاعرا رصيفا ، وكان أستاذه وقـدوته فى الكتابة الفنية هــو ابن العميد ولا ريب ٠

٢ - وفى عصر الصاحب ازدهرت الكتابة ، وبلغت قمـة التجويد والتجـديد ، ونبغ فى هذا العصر أعلام الأدب والنقد والنثر الفنى ، من أمثال : ابن العميد والجرجانى والعسكرى والآمدى والصابى والخوارزمى والبديع والمهلبى والضبى وغيرهم ٠

وكان الصاحب يقـول : كتاب الدنيا وبلغاء العصر اربعـة : ابن العميد والصابى وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، ولـو شئت لذكرت الرابع ، يعنى نفســه(٦٢) • وكان يقـــال ان الصاحب يكتب ما يريد - والصابى يكتب ما يراد • وكان يسير على طريقة ابن العميد فى الكتابة ، مـع حرص شـديد على السجع ، حتى روى أبو حيـان فيه : انه لـو رأى سجعة ينحـل بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبـل الدولة ، ويحتاج من اجلهـا الى غرم ثقيل ، وكلفة صعبة ، وتجشم أمور ، وركوب أهوال ، لمـا كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها(٦٣) ، ويقـول أبو حيان : كان ابن عباد يأتى بالسجع فى أثر كلامه ، مع روية طويلة(٦٤) •

وبلاغاته وفقره ورسائله مشهورة ، معروفـة المنزلة فى الفصاحة والبيـــــان •

يقـول فى التهنئـة ببنت :

أهلا وسهلا بعقيلة النساء ، وأم الأبنـاء ، وجالبة الأصـــــهار ، والأولاد الأطهار ، والمبشرة بأخـوة يتناسقون ، نجباء يتلاحقون ، فادرع يا سـيدى اغتبـاطا ، واستأنف نشاطا ، فالدنيـــا مؤنثـــة والرجـال يخـدمونها ، والذكور يعبدونها ، والأرض مؤنثة ، ومنها خلقت البرية ، وفيها كثرت الذرية ، والسماء مؤنثة ، وقـد زينت بالكواكب ، وحليت بالنجم الثاقب ، والنفس مؤنثة ، وبهـا قوام الأبدان ، وملاك الحيوان ، والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ، ولا عرف الأنام ، والجنة مؤنثـة ، وبهـا وعـد المتقـون ، ولهـا بعث المرسلون • فهنيئـا لك ما أوليت ، وأوزعك الله شكر ما أعطيت ، وأطال بقـاءك ما عـرف الفضل والرمد ، وما فى الأمد ، وما عمـر لبـد •

وأهـدى الى الصاحب مصحف فقـال :

---

(٦٢) ٢ : ٢٤٦ اليتيمـــة •
(٦٣) ٦ : ٢٠٧ معجم الأدباء •

كتاب الله وبيانه ، ووحيه وتنزيله ، وهداه وسبيله ، ومعجزة رسول الله - صلى الله عليه وسلم ودليله - ، طبع دون معارضة على الشفاه ، وختم على الخواطر والأفواه ، فقصر عنه الثقلان ، وبقى ما بقى الكون ، لائح سراجه ، واضح منهاجه ، منير دليله ، عميق تأويله . يقصم كل شيطان مريد ، ويذل كل جبار عنيد .

وتتلخص طريقة الصاحب الفنية فى الكتابة فيما يلى :

أولا : ايثار السجع والتزامه ، حتى ليقول أبو حيان التوحيدى متهكما به : كان كلفه بالسجع فى الكلام عند الهزل والجد يزيد على كلف كل من رأيناه فى هذه البلاد . قلت لابن المسيبى : اين يبلغ ابن عباد فى عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك حدا لو انه رأى سجعة تنحل بموقعها عروة الملك ويضطرب بها حبل الدولة ، ويحتاج من أجلها الى عزم ثقيل ، وكلفة صعبة ، وتجشم أمور ، وركوب أهوال ، لما كان يخف عليه أن يخليها ، بل يأتى بها ، ويستعمها ، ولا يعبأ بجميع من وصفت من عواقبها . ثم قال - نقلا عن ابن العميد - : ان الصاحب خرج من الرى متوجها الى أصفهان ، ومنزله « ورامين » . وهى قرية كالمدينة ، فجاوزها الى قرية غامرة ، وماء ملح ، لا لشىء الا ليكتب الينا : كتابى هذا من النوبهار ، يوم السبت نصف النهار .

ثانيا : ايثار الفقر القصيرة فى التعبير ، لشدة وقعها فى النفس ، وقوة تأثيرها فى السمع .

ثالثا : الاهتمام بالمعنى اهتماما واضحا ، واعطاء الموضوع ما يستحقه من عناصر ، فهو يقسم عناصره ، ويرتبها ، ويعطى كل قسم منها من المعانى ما يوضحه ويبينه ، وهو يأخذ هذه المعانى بالتحليل والتفصيل ، ويتعهدها بالتنويع والتفريع ، ويقرن بعيدها بما يقربه الى العقل من دليل او نظير ، ويولد بعضها من بعض ، متكئا على ثقافته العقلية ، فأصبحت الرسالة عنده ذات وحدة موضوعية ، وبنية فنية متميزة ، وصارت معانيه عنده دقيقة الترتيب والتقسيم .

رابعا : كثرة الحجاج العقلى فى أسلوبه · أثرا لثقافته الكلامية التى استفادها من اعتزاليته ·

خامسا : الحرص على تأكيد المعنى وتقريره ، بمعاودته ، وبايثار الترادف والالحـاح عليـه ·

ونثر الصاحب على الجملة - لـو تأملناه - نثر لطيف ، رشيق بليغ ، عـذب سـهل ، يتميز بقـوة الحجة والاعتماد على المنطق ، ممـا كان أثرا لاعتزاليته وثقافته وعقله الواسع · كما يتميز بقصر الفقرات وشـدة توقيعها والحرص على السجع فيها ، وقـد يعنى فيه بالجناس أو المقـابلة ·

ولا شـك أن الصاحب كان من أعـلام النهضـة الفنية فى الأدب والكتـابة وأدب الرسـائل فى عصره ، وهـو القرن الرابع الهجرى ، الحافـل بأسباب النهضة والازدهار والتجـديد والحضارة ·

٣ - وفى عصر الصاحب كان الشعر يجتاز مرحلة عالية من البلاغة والتجـديد والابتكار ، وكان المتنبى والرضى ومهيار والمعرى ومئـات الشعراء يدوى ذكرهم فى كل أفـق ، ويسير شعرهم فى كل مكان ، ويمـلأون الجـو الأدبى حيـاة وقـوة وخصبا ·

وللصاحب شـعر كثير ، جمع فى ديوان منشور ، وروى بعضـا منه الثعالبى وغيره من الكتاب ·

وقـد نظمه الصاحب فى أغراض كثيرة :

(أ) نظمـه فى الغزل ، كقـوله :

قـال لى : ان رقيـبى سـيىء الخـلق فـداره

قلـت : وجهـك الجنـ ـة حفـت بالمـكاره

(ب) وفى الخمريات ، ومنه فى وصف الكأس :

رق الزجاج وراقت الخمر   وتشابها فتشاكل الأمر

(جـ) ونظمه فى الأوصاف والتشبيهات ، كقوله :

شبهته والسيف فى كفه   بالبدر اذ يلعب بالبرق

وقوله :
أهديت عطرا مثل طيب ثنائه   فكأنما اهدى له اخلاقه

(د) وفى الاخوانيات كقوله :

يا أبا الفضل لم تأخرت عنا   فأسانا بحسن عهدك ظنا

كم تمنت نفسى صديقا صدوقا   فاذا أنت ذلك المتمنى

فبغصن الشباب لما تثنى   وبعهد الصبا وان فات منا

كن جوابى اذا قرأت كتابى   لا تقل للرسول كان وكنا

(هـ) وفى المدح كقوله فى فخر الدولة لما بنى قصره بجرجان :

يا بانيا للقصر بل للعلا   همك والفرقد سيان

لم تبن هذا القصر بل صغته   تاجا على مفرق جرجان

وقصرك المبنى من قبله   ملكك والله هو البانى

فابيل نثار العبد بل نظمه   فانه والدر مثلان

واسمع مقالا لم يقل مثله   مذ كانت الدنيا لانسان

لو كان للخلق الهان   لكان فخر الدولة الثانى

وفى البيت ما فيه من المبالغة القريبة من الكفر ومن الملق والنفاق ٠

(و) ونظمه فى الهجاء والمجون كقوله :

ان قاضينا لأعمى   أم على عمد تعامى

سرق العيد كأن ال   عيد من مال اليتامى

وقوله :

تزلزلت الأرض زلزالها   فقالوا بإجمعهم : ما لها ؟

مشى ذا الثقيل على ظهرها   فأخرجت الأرض أثقالها

وهو شعر يدل على ذوق مترف ، وشاعرية خصبة ، غنية بالألوان والصور والأخيلة والمعانى ، ولكنه لا يرتفع به الى منزلة شعراء عصره الخالدين ، من أمثال المتنبى والرضى ومهيار وغيرهم ٠ وهو كذلك لا يصل الى منزلة نثره البليغ الرصين الرائع ٠

وعلى الجملة فقد كان (ابن عباد)(٦٥) شاعرا مجودا ، وبليغا

---

(٦٥) راجع فى الصاحب : المنتظم لابن الجوزى - يتيمة الدهر الجزء الثالث - وفيات الأعيان الجزء الأول - سلم الوصول (مخطوط) - ٠

معجم الأدباء لياقوت - الأعلام للزركلى - جميع كتب التاريخ التى أرخت للدولة البويهية والقرن الرابع الهجرى - كتب تاريخ الأدب العربى ، من مثل تاريخ الأدب العربى للزيات - تاريخ آدب اللغة العربية لزيدان - تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ، تاريخ آداب اللغة العربية لمحمد زيدان ، تاريخ الأدب العربى للسباعى بيومى ، الأدب فى ظل بنى بويه للزهيرى ، أدبيات اللغة العربية لمحمد عاطف ، تاريخ الأدب لحفنى ناصف ، الحياة الأدبية فى العصر العباسى ، والحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى ، وهما لكاتب هذا البحث - العصر العباسى للاسكندرى ، تاريخ الأدب العربى الجزء =

محلقا ، وأديبا مترسلا ، فى الصف الأول من أدباء عصره ، وقد خلدته روائع شعره ونثره على مر الزمان ٠

=

الثانى لمحمود مصطفى ٠ دوائر المعارف من مثل : دائرة المعارف الاسلامية ، دائرة معارف البستانى ، دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدى ، الأعلام للزركلى - زهر الآداب للحصرى ، الصناعتين للعسكرى ، صبح الأعشى القلقشندى ، النثر الفنى فى الرابع لزكى مبارك ، أمراء البيان لمحمد كرد على ، الفن ومذاهبه فى النثر العربى لشوقى ضيف ، المثل السائر لابن الأثير ، نهاية الأرب للنويرى ، الآداب السلطانية للفخرى - الوزراء والكتاب للجهشيارى ، نشوار المحاضرة للتنوخى ٠

وراجع ديوان الصاحب ، ورسالته : الكشف عن مساوىء المتنبى فى شعره ، وكذلك مجموعة رسائله ٠

وللدكتور بدوى طبانة كتاب عن الصاحب نشر فى سلسلة أعلام العرب ، وللدكتور حامد داود حفنى كتاب عنه كذلك

الفصل الثالث

أبـو دلـف فى زحـام الحيـاة

أبـو دلـف الخـزرجى

(٣٠٠ ـ ٣٩٠ هـ = ٩١٣ ـ ١٠٠١ م)

ـ ١ ـ

رحالة من أعظم الرحالة الجغرافيين المسلمين على امتداد التاريخ وبخاصـة فى القرن الرابع ·

وعالم وطبيب وكيمائى وجيولوجى من الطراز الأول فى عصره ·

ومنادم فى الذروة ، جلس فى مجالس الملوك ينادمهم ، وينـادم الوزراء والأمراء ، وينـال عندهم الحظوة والمكانة الرفيعة ·

وشاعر رفيـع المنزلة فى عصره فى الشعر ، وعلم من أعـلام الشعر الساسانى الذى كان لـه طرافته وروعته فى عصره ·

ونموذج فنى رفيع للساسانية التى تتميز بالظرف وعلو الـذوق وجمـال الفكاهـة وحضور البديهـة وسرعة النكتـة ·· وعـلو ذوقـه وجمـال فكاهته ممـا حببه الى الملوك وقربه الى الوزراء

وهو شخصية فذة اهتزت دوائر المشرق والمغرب بدراسة أفكارها ونتائج رحلاتها القـديمة فى شتى أنحـاء آسيا ·

ولقـد كان بديع الزمان الهمـذانى وثيق الصـلة بأبى دلـف ، وواقفا على أخباره ، وراوية لشعره ، وفى اليتيمة ما يدل على ذلك(٢)· وكانت شـخصية أبى دلـف ملء سمع البـديع وبصره ، ورحـلاته وتطوافه فى الأرض موضع عجبه واستظرافه ، كما كانت شيخوخة أبى دلف وتجاربه وحكمته وخبرته بالحياة وتنقله بين الغنى والفقر ، وحرفته الساسانية وهـو علم فيها ·· كان ذلك كله موضـع تأمل البديع وتعجبه ،

---

(١) ١٠٧ من كتابى « الحيـاة الأدبية فى العصر العباسى الثانى » ·

(٢) ٣ : ٢٢٣ اليتيمـة ·

لذلك فـان البـديع حين كتب مقاماته اتخـذ من ابى دلـف وشـخصيته بطلا للمقامات التى ابدعها ، ورمز اليه بأسم أبى الفتح الاسكندرى ٠

ونقـول تأكيدا لذلك : ان جميع ما صور به البديع بطـل مقاماته أبا الفتـح الاسكندرى ينطبق على أبى دلف تمام الانطباق ٠

فهـو خطيب وبليـغ وشـاعر ، وهـو جـوالة فى الآفاق ، وهو يحترف الساسانية تظرفا ودعابة وحلو فكاهـة ، والعجك من قعود همته مع حسن ألتـه ، وهـو كهل قـد غبر فى وجهه الفقر ، وهـو كما يقول البديع فى المقـامة الصيمرية على لسان أبى الفتح :

« خرجت اســـيح كأنى المســيح فجلت خراســان الى كرمانى وسجستان ، وجيلان ، الى طبرستان والى عمان ، الى السند والهند ، والنـوبة والنبط ، واليمن ، والحجاز والطائف فجمعت من النــوادر والأخبار والأسحار والفـوائد ٠٠ ما قصر عنه فتيا الشعبى » ٠

واسم أبى دلف مسعر بن المهلهل ٠

ونسبته الى الخزرج احـدى القبيلتين الكبيرتين فى المدينة اللتين أطلق عليهما بعـد الهجرة اسم « الأنصار » ، وهما الخزرج والأوس ٠ والخزرج فى الاسلام وبالاسلام تاريخ كبير خالد ، ومن الخزرج بنــو النجار أخوال رسول الله ، لأن أم جـده عبد المطلب « نجارية » ٠

أما الينبعى فهـو نسبة الى مدينة ينبع المشهورة فى الحجاز ، ويوصف أبو دلف أيضا بالينبوعى ، وينبع وينبوع علم واحـد لهـــذه البلـدة المعروفة من بلاد الحجاز ٠

ونحن لا نعرف عن المهلهل والد مسعر ولا عن قومه شـيئا ، فكل المعلومات المتعلقة بحياة ابى دلـف شـــحيحة ونادرة ٠٠ وقـــد عنى المستشرقون بأعمال ابى دلف الجغرافية وحـدها ، ومن بينهم رون صوبر،

ومينورسكى ، وكراتشوفسكى • ولم يستطيعوا مع ما بذلوه من جهد علمى ، كشف ما غمض من حياة أبى دلف نفسها •

أما أم أبى دلف فنجد فى رسالة لابن العميد(٣) ، كتبها وعيدا وتهديدا لأبى دلف ، ما يدل على أن صاحبنا ينتمى الى ابنة محمد بن زكريا الذى كان يعاصر لبن العميد •

وقد أعيانى البحث فى المصادر القديمة عن شخصية محمد ابن زكريا فلم أهتد الى اثر له ، وقد استطيع فى المستقبل الاهتداء الى ترجمة له تكشف عن شخصيته ، فأضيف الى صورة أبى دلف مزيدا من الوضوح والرؤية •

واغلب الظن أن أبا دلف ولد فى ينبع ، وهو ما ذكره كراتشوفسكى فى كتابه ، « تاريخ الأدب الجغرافى العربى »(٤) أيضا ، ويؤيد ذلك قول أبى دلف فى رسالته التى وصف فيها رحلته الى الصين ، وهى الرسالة الأولى : « لما نبا بى وطنى ، ووصل تى السير الى خراسان ، ضاربا فى الأرض »(٥) • ويذكر خالدوف وبولناكوف فى تحقيقهما للرسالة الثانية لأبى دلف ذلك أيضا ، أى أن ميلاده كان فى ينبع ، ولكنهما يخطئان فيقولان : ان مكان مولده هو فى مدينة ينبع الميناء على ساحل البحر(٦) ويقولان اثر ذلك : ومن غير المعروف زمن ومكان مولد ووفاة أبى دلف •

وتذكر بعض المراجع ، ومن بينها الأعلام للزركلى ، أن أبا دلف

---

(٣) سأذكر فقرات من هذه الرسالة عند الحديث عن صلة أبى دلف بابن العميد — وراجعها فى صفحة ٢٨٩ من كتاب مثالب الوزيرين لأبى حيان التوحيدى •

(٤) ص ١٨٨ •

(٥) راجع ٥ : ٤٠٨ معجم البلدان لياقوت •

(٦) ص ٨ الرسالة الثانية لأبى دلف — ترجمة محمد منير مرسى — نشر مكتبة عالم الكتب بالقاهرة •

مات نحـو عام ٣٩٠ هـ ـ ١٠٠١ م ، وانه عاش نحـو التسعين عاما ، فيكون ميلاده اذن فى خلافـة المقتـدر بالله العباسى عام ٣٠٠ ـ ٩١٣ م ٠

ويذكر الثعالبى فى كتابه « يتيمـة الدهـر » أنه عمر تسعين عاما، فيقول عنه : خنق التسعين فى الاطراب والاغتراب ، وركوب الأسـفار الصعاب » ٠ ولكنه لا يحـدد تاريخا لميلاده ولا لوفاته ٠

وهـو من الجزيرة العربية ، من ينبع عاش القرن الرابع الهجرى كله ، يجـوب البلاد ، ويمدح الملوك ، وينادم الأمراء والوزراء ، تراه مطوفا فى كل مكان من بخارى الى الصين والهنـد ، ومن فارس الى ارمينية وأذربيجان وطبرستان ، وبلاد الأكراد ، ويصف كل ما شاهده ، ويدون كل ما يلاحظه ، فى دقـة تامة ، وعناية بالتفاصيل ، ممـا أذهل المستشرقين ، فكتبوا عنه أنه كان جغرافيا من الطراز الأول ، ومن أشهر الرحالة فى القرن الرابع ٠

وأبو دلف من هـذا الجانب مصدر أصيل لكل الجغرافيين المسلمين ، الذين أتوا بعـده ، ومن بينهم : ياقـوت الحمـوى فى كتـابه « معجم البلدان » ، والقزوينى فى كتـابيه : « عجـائب المخلوقات » و « آثار البـلاد » ٠

وأبو دلف شـاعر عربى كبير ، مجهول شانه ، مغمور تاريخه ، لم يذكره احـد من المؤلفين القـدماء ، ونسيه المحـدثون نسيانا تاما ٠

والمصـدر العربى القـديم الذى ترجم لأبى دلف شاعرا ترجمـة ادبية ، ليس فيها شىء من التفصيل عن حياته ، هـو كتاب « يتيمـة الدهر » لأبى منصور الثعالبى شـيخ الأدباء فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجرى (المتـوفى عـام ٤٢٩ هـ) ، فقـد ذكره الثعالبى فى الباب السادس الذى خصـه بالشعراء الطارئين من الآفـاق على الوزير الصاحب بن عبـاد ، وقال عنه :

« ابو دلف الخزرجى الينبوعى ، مسعر بن مهلهل ، شاعر كثير الملح

والظرف ، مشحوذ المـــدية فى الجـدية ، خـــق التسعين فى الاطراب والاغتراب ، وركـوب الأسفار الصعاب فى خـدمة العـلوم والآداب » ، ويستمر الثعالبى فى الحـديث عن أبى دلف ، فيقول : « كان ينتاب - يقصـد - حضرة الصاحب بأصبهان ، ويكثر المقام عنده ويتزود كتبه - أى رسائله التى تتضمن التوصية - فى أسفاره » ٠

ويشـير الثعـالبى الى معـركة الهجـاء التى دارت بين أبى دلف والشاعر السلامى (٣٣٦ - ٣٩٤ هـ) ٠

ويذكر شعرا لأبى دلف ، وقصيدته الساسانية الطويلة(٧) ٠

وفى موضـع آخر من اليتيمـة يقول الثعالبى عنه : « وكان بحضرة الصاحب شيخ يكنى بأبى دلف مسعر بن مهلهـــل الينبـــعى ، يشعر ويتطبب ويتنجم ويحسد السلامى على منزلته(٨) ٠

ويشير الثعالبى الى أبى دلف فى بعض كتبـه الأخرى اشارات عابرة ، مثل كتابه « لطائف المعـارف » ٠

ونجـد نقـولا جغرافية كثيرة عنه فى : « عجائب المخلوقات » و « آثار البـلاد »(٩) ، وهما للقزوينى ، وفى « معجم البلدان » لياقـوت الذى يشير الى أبى دلف فى ٣٤ اقتباسا ٠٠ ودراسات كرتشوفسكى تذكر ٢٤ اقتباسا لا يذكر فيها ياقـوت اسم أبى دلف ٠

---

(٧) راجـع ٣ : ٢٥٢ وما بعـدها يتيمة الدهر ٠ للثعالبى - بتحقيق محمـد محيى الدين عبد الحميـد ٠

(٨) ٢ : ٤٠٠ يتيمـة الدهـر ٠

(٩) فى كتاب « آثار البـلاد » يوجـد ٢٤ اقتباسا من « الرسالة الثانية لأبى دلـف » وان كان لا يشير الى أبى دلـف الا فى سبع منها ، وفي عجائب المخـلوقات توجـد كذلك اشـارات كثيرة لـــه ، وأربع اقتباسات دون اشـارة الى اسمه ٠

وفى دائرة المعارف الاسلامية فى مادة « مسعر » ترجمة لـه تبين الكثير من دراسـات المستشرقين عنـه : رحـالة كبيرا ، وجغرافيـا مشهورا(١٠)

وتجىء اشارات صغيرة عنه فى كتاب « بلاد ينبـع » للشـيخ حمـد الجـاسر(١١) ٠

وفى كتاب الأعـلام للزركلى ترجمة لأبى دلف فى عـدد سطور ممـا جاء فيـه عنه : شـاعر رحـالة ، وكان يكنى بالرحـالة الحجازى قام برحلة ممتعة الى الشرق الأقصى ، وكتب ما شاهده فى تلك الديار فى كتاب ضخم ، نقله المستشرقون عنه الى مختلف اللغات الأوروبيـة ، تجاوز التسعين من عمره توفى نحـو عام ٣٩٠ هـ(١٢) ٠

ويلاحظ الشيخ حمـد الجاسر على هـذه الترجمة أمرين :

الأول أن الزركلى نسبه الى ينبع البحر ، وهـو من ينبع النخل ٠

والثانى قوله فى « كتـاب ضخم » : ويقول العلامة الجاسر : انه ليس مجلدا ضخما بل رسالة ، وقـد حققها المستشرق مينورسكى وطبعت فى مصر سنة ١٩٥٥ فى ٣١ صفحة النص العربى والترجمة الانجليزية والدراسة فى ١٣٦ صفحة ٠

وكلام العلامة الجاسر صحيح فى أنه ليس كتابا ضخما بل رسالة، وأما قوله : « ان الرسالة حققها المستشرق مينورسكى اخ » فذلك ليس عن رسالة ابى دلف فى وصف رحلته الى الشرق الأقصى ، وهى التى

---

(١٠) راجـع الطبعة الانجليزية الجـديدة من دائرة المعارف الاسلامية. وقـد ترجم النص الانجليزى لهـذا البحث الأستاذ وديع فلسطين ـ الطبعة العربية لم تصـل الى هـذه المـادة ٠

(١١) ١١٧ و ١٤٥ بـلاد ينبـع ٠

(١٢) ٨ : ١٠٩ الأعـلام للزركلى ٠

تسمى بالرسالة الأولى ، بل عن رسالة أبى دلف فى وصف، رحلته فى آسيا الوسطى وهى التى تسمى الرسالة الثانية •

والرسالة الأولى لأبى دلف عنى بتحقيقها المستشرق الألمانى رور صوير •

أما الرسالة الثانية فعنى بتحقيقها المستشرقون الروس ، فدرسها المستشرق كراتشوفسكى ، ومينورسكى ، وحققها مينورسكى ، ثم خالدوف وبولناكوف معا فى نصها العربى ، وهما مدرسان بجامعة لينتجراد •

- ٢ -

وهكذا عاش أبو دلف فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى • وشاهد كل أحداث هذا القرن وغرائبه ، بما ساد فيه من حضارة وازدهار للعلوم والآداب ، وبما ساده من تطورات فكرية وسياسية كبيرة، كان فى مقدمتها : انتهاء نفوذ الخلافة العباسية ، بإستيلاء البويهيين على بغداد عام ٣٣٤ هـ ، وقيام الدول المستقلة عن الخلافة فى أنحاء العالم الاسلامى الذى كانت من قبل تجمعه رابطة سياسية واحدة •

ولا نعلم شيئا عن حياة أبى دلف الأولى ونشأته • وبلا ريب قد تثقف ثقافة واسعة ، وشب عربيا كريما عزيز النفس ذا شخصية قوية مهيبة مرحة ، فى وسامة ولطف • وكانت ينبع النخل آنذاك مركزا من مراكز العلم والأدب والشعر ، وصار أبو دلف شاعرا وعرف كذلك طبيبا ومنجما ، وليست « ساسانيته » بمنقصة لعزة نفسه ، فقد كانت ساسانية ظرف وفكاهة وأدب وطواف بالآفاق •

وفجأة ينبو بأبى دلف وطنه ، وتسير به الحياة الى الأمير السامانى نصر بن أحمد (٣٠١ - ٣٣١ هـ : ٩١٤ - ٩٤٣ م) ، فيحتل عنده منزلة عالية فى دولته ، وقد يكون الشعر أو الطب بدء صلته بالأمير ، ومهما كان ، فقد صار أبو دلف شاعر الأمير ونديمه ، وصار كذلك سفيره فى كثير من المهام الرسمية •

وكان الجيهانى أبو عبد الله بن احمد بن نصر وزير للسامانيين (توفى عام ٣٣٠ هـ/٩٤١ م) ، وكان يشجع الأدباء ، ويحتفى بالعلماء ولعله هو الذى احتضن أبا دلف ، أو اتخذه كاتبا له ، وعن طريقه توطدت صلته بالملك السامانى نصر بن أحمد الذى كانت بخارى عاصمة ملكة الواسع الذى امتد نحو الثلاثين عاما (٣٠١ - ٣٣١ هـ) ٠

وفى عهد الملك نصر بن احمد وفد الى بخارى وفد هندى برياسة الأمير الهندى كلاتلى فى سفارة هندية الى بلاط الملك السامانى، وانجز هذا الوفد مهمته ، وعند عودتهم الى بلادهم بعث معه الملك شاعره أبا دلف ليكون مرافقا لهم ٠

وزار أبو دلف فى هذه الرحلة كشمير وكابل وسواحل مليبار ، ووصف ذلك كله فى كتاب الفه بعنوان « عجائب البلدان » ، والظاهر انه مجموع رسالتيه فى وصف رحلاته(١٣) ٠

وفى آخر حكم نصر بن أحمد السامانى وفد على بخارى كذلك وفد صينى ، ويقص أبو دلف قصة هذا الوفد ، فيقول(١٤) :

« ان رسل ملك الصين جاءوا ليخطبوا ابنة الملك السامانى لملكهم ، فأبى نصر بن أحمد ذلك ، واستنكره لحظر الشريعة له ، فلما ابى ذلك عرضوا عليه أن يزوج بعض ولده من ابنة ملك الصين ، فأجاب الى ذلك ، فاغتنمت قصد الصين معهم » ٠

وكان ذلك نحو عام ٣٣١ هـ : ٩٤٢ م وقد عبر أبو دلف هو والوفد الصينى تركستان الغربية ، وتركستان الشرقية وبلاد التبت ،

---

(١٣) كنت أظن أنه كتاب مستقل مفقود ، ولكن ابا دلف يبدو أنه قسمه الى رسالتين ، وذاعت كلمة الرسالة الأولى والرسالة الثانية بدلا عن الاسم الأصلى وهو « عجائب البلدان » ، وقد جرى على ذلك بروكلمان ، فلم يذكر الرسالة الأولى والثانية لأبى دلف ، انما ذكر مكانها كتاب « عجائب البلدان » ٠

(١٤) ٥ : ٤٠٨ معجم البلدان لياقوت ٠

ودخــل الصين من مدينة « مقــام البــاب » ، فــوادى المقــام ، فسندابل العاصمة ·· ويقول أبو دلف(١٥) :

ودخلت على ملكهم فخاطبته الرسل بما جاءوا به من تزويجـــه ابنته من نوح بن الملك السامانى نصر بن أحمــد ، فأجابهم الى ذلك ، وأحسن الى والى الرسل واقمنا فى ضيافته ، حتى نجزت أمور المرأة ، وتم ما جهزها به ، وحملت الى خراسان ، الى نوح بن نصر ، فتزوج بهــا · ويقــول أبو دلف :

وأقمت بسندابل العاصمة مدة ، القى ملكها فى الأحايين ، فيفاوضنى فى أشياء ، ويسألنى عن أمور من أمور بلاد الاسلام ، ثم استأذنته فى الانصراف ، فأذن لى بعــد أن أحسن الى » ·

وغادر أبو دلف الصين الى الهند حتى رجــع الى بلاده عن طريق ســـجستان ·

وزادت هــذه الرحلة من مكانة أبى دلف فى دولة السامانيين ، ومن منزلته فى عصره ، وفى الحياة الاسلامية بصفة عامة ·

تنقضى هــذه المشاهد كلها ، ونرى ابن ينبع الكبير يعيش فى ظلال دولة البويهيين ، ولا ندرى كيف كان ذلك ، ولا متى كان ؟

ترك أبو دلف بخارى والسامانيين الى البويهيين ، ووزيرهم الشهير ابن العميد ، ثم وزيرهم الكبير الصاحب بن عبــاد ، والى عـــواصمهم الكبرى يتنقل بينها : أصبهان ، والرى ، وبغــداد ، وأصبح رفيع المكانة عند عضــد الدولة الملك البويهى نفسه ·

---

(١٥) ٥ : ٤١٤ معجم البلــدان ·· وفى مروج الذهب للمسعودى المؤرخ (ت ٣٤٦ هـ) جـ ١ صفحة ٤٤٩ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد : وقــد رأيت ببلخ شيخا جميلا ذا رأى وفهم وقــد دخــل الصين مرارا كثيرة ولم يركب البحر قط ·· فهــل يقصــد المسعودى بذلك أبا دلف ؟؟

وكان أبو الفضل محمد بن العميد (٣٠٠ - ٣٦٠ هـ) امام عصره فى الأدب والكتابة والبلاغة ، كما كان لـه مجـده وهيمنته وسـلطانه السياسى فى دولة البويهيين ، وكان وزيرا لركن الدولة البويهى (٣٢٠ - ٣٦٦ هـ : ٩٣٢ - ٩٧٦ م) وذلك من عام ٣٢٨ هـ : ٩٣٩ م .

وقـد بدأ أبو دلف يتصل به ، والظاهر أنه أقبـل عليه ثم أعرض عنه ، فهجاه أبو دلف ، ورد عليـه ابن العميد ، مهـددا برسالة رواها أبو حيان التوحيدى فى كتابه « مثالب الوزيرين »(١٦) ، وجاء فيها :

« الآن علمت أيها الشيخ أنك لى مكايد ، والى جميع ما أنهـاك عنه مخالف ، وعلى ديدنك المعروف ثابت ، وبفضلة لسانك مسحور » ..

الى أن يقـول ابن العميد :

« تقاعست عنى بلا عـذر ، ووقفتنى بين وصل وهجر ، فلم ادر كيف اخاطبك ؟ وعلى ماذا أعاتبـك ؟ لأنك مشهور بقحـة ، ومذكور بسلاطة ، ومعتاد للبهت ، وجار على الكذب » .

« وأول ذلك انك تدعى بنوة محمـد بن زكريا من ناحية ابنته ، وقد شاهدت محمـدا وما خلف بنتا » .

ثم يقـول ابن العميد فى غضب ظاهر :

ان فى الموت خلاصا منك ، ومفارقة لمثلك ، والله ما أندب الا حسن ظنى بك ، ومباهاتى أهـل مجلسى بفضلك ، وقـولى : « أبو دلف وما أدراك ما أبو دلف ؟ لا تنظروا الى هـزله ، فان وراء ذلك جـدا ، وهـو المرء الذى قـد جمع الله لـه بين المنظر والمخبر ، وبين الدعوى والبينة ، وبين القول والحجة ، وبين الضمان والوفاء ،وبين الصـداقة والشفقة » .

---

(١٦) ص ٢٨٩ - ٢٩٢ المرجـع المذكـور .

« فما زلت اقـول هـذا رشبهه ، وأصحابى يشيعون قولى بمثـله فى الظاهر ، ويخالفوننى بعلمهم فى الباطن ، حتى كان الثلج لهم ساعة هـذه · لأنى احتجت الى علمك فخيبت عهدى ، وأقبلت عليـك فأعرضت عنى ، ووهبت لك كلى ، فبخلت ببعضك على ·· ولقـد استفدت بمعرفتك تجنب مثلك ·· » ·

ويقـول أبو حيـان التوحيدى(١٧) :

قلت لأبى دلف : ماذا أجبته عن هـذا الكلام ؟

قال : عملت شيئا لم اجسر على اظهاره ، وخفت صولته ونكايته ، وشره وغائلتـه ·

وتوفى ابن العميد عام ٣٦٠ هـ وولى ابنه أبو الفتـح منصب أبيـه فى عهـد ركن الدولة ، ثم فى عهـد مؤيد الدولة الذى كان يؤثر تلميـذ ابن العميد الصاحب بن عبـاد ويقـدمه · وانتهى الأمر بمقتل أبى الفتح الوزير عـام ٣٦٧ هـ ·

أما الصاحب بن عباد (٣٢٤ ـ ٣٨٢ هـ : ٩٣٦ ـ ٩٩٥ م) فهـو الوزير البويهى الكبير الذى وزر لبنى بويه طيلة ثمـانية عشر عـاما (٣٦٧ ـ ٣٨٥ هـ) ·

وصـار أبو دلف قريب المنزلة من الصاحب(١٨) ، يجلس فى مجالسـه فى أصبهان والرى منادمنا ، ومادحـا ، وكان الصاحب نادرة الدهر ، وأعجـوبة العصر(١٩) ، وظـل وزيرا مدى ثمانية عشر عاما

---

(١٧) ٢٩٢ مثالب الوزيرين ·

(١٨) راجـع عنه : ٢/٢٦٨ ـ ٢٧٠ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ـ كتابى الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العبـاسى الثانى ـ ١٣ : ٩٧ معجم الأدب لياقـوت ·

(١٩) ١ : ٧٥ وفيـات الأعيـان ·

(٣٦٧ - ٣٨٥ هـ) ، وكانت لـه خزانة كتب فيها نحو ربع مليون كتاب(٢٠) ٠

وقد احتف بالصاحب من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى ، وملك رق المعانى ٠ فانه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء المذكورين ، وجمعت حضرة الصاحب بن عباد بأصبهان وجرجان مثل أبى الحسن السلامى ، وأبى سعيد الرستمى ، والبديع الهمذانى ، والقاضى الجرجانى ، وأبى القاسم بن أبى العلاء ، وأبى دلف ، والصابى ، وسواهم ، ممن يطول ذكرهم كما يقول الثعالبى فى « يتيمة الدهر »(٢١) ٠

ويذكر الثعالبى أبا دلف من شعراء الصاحب ومنادميه وجلاسه(٢٢) ٠

ويقول : وكان بحضرة الصاحب شيخ يكنى بأبى دلف مسعر ابن مهلهل الينبعى ، يشعر ويتطبب ويتنجم(٢٣) ٠

وكان الأدباء يجدون فى ظل الصاحب أمنا وأمانا لهم ، مما حل بالبلاد فى عهد البويهيين من فقر مدقع ، فقد صارت العراق - كما يقول المقدسى - بيت الفتن والغلاء(٢٤) ٠ واحترف أكثر العلماء والأدباء صناعة الوراقة ، كأبى حيان التوحيدى (٣٢٠ - ٤١٤ هـ) وغيره ٠

---

(٢٠) ١٣ : ٩٧ معجم الأدباء لياقوت ٠
(٢١) ١٦٩/٣ اليتيمة ٠
(٢٢) ٣ : ١٨٩ المرجع نفسه ٠
(٢٣) ٢ : ٤٠٠ المرجع ٠
(٢٤) ١١٣ أحسن التقاسيم ٠

واتصل أبو دلف بعضـد الدولة(٢٥) الملك البويهى فى بغداد ، وجلس فى مجالسه شـاعرا ومنادما ، وتصور لنـا القصة الآتية مكانة أبى دلف عند هـذا الملك البويهى الكبير ، وقـد رواها الثعالبى فى كتابه « لطـائف المعـارف » :

جرت بين أبى على الهائم وأبى دلف الخزرجى فى مجلس أنس لعضـد الداولة بشيراز مطايبة ومداعبة ، ومحاضرة ، ومذاكرة انتصر فيها أبو دلف على صاحبه انتصارا كبيرا ٠

فأعجب عضـد الدولة بكلام أبى دلف ، ووفـور حظـه من طـوافه بالشرق والغرب ، ووقوفـه على خصائص البلدان فى كـل مكان من العالم الاسلامى ٠٠٠ ولم يملك الا ىن صاح بملء فيـه بهـذه العبـارة العجيبة التى لم يقلها ملك فى أحـد من الأدباء أو الرعية ، قال عضـد الدولة فى تعجب ظاهر :

« لله درك يا أبا دلف ٠٠(٢٦) ٠

ملك يا أبا دلف ينـادم الملوك » ٠

وأمر لـه بخلعـة وصـلة حسنة ٠

وتدل هـذه القصـة على ما يلى :

١ ـ كثرة طـواف أبى دلف بالعـالم الاسـلامى ، ووقوفـه على خصائص كل مصر من أمصاره ، وبلـد من بلـدانه ٠

٢ ـ حضـور بديهته ووفرة أدبه ٠

٣ ـ ما كان يتمتع به من منزلة رفيعة عند عضـد الدولة ٠

---

(٢٥) من شعراء عضـد الدولة : المتنبى ، والسلامى ، وغيرهما ومن العلماء الذين كانت لهم منزلة عنده أبو على الفارسى الذى أهـداه كتابه « الايضاح » (٣ : ٦٨ ذيل تجارب الأمم لمسكويه) ٠

(٢٦) ٢٣٩ المرجـع السـابق ٠

٤ ـ وفرة حظـه من بين منادم الملوك وحسن مجالسهم ٠

وتوفى عضـد الدولة عام ٣٧٣ هـ ثم توفى بعـده بعـده بزمن ليس بطويل وزيره الصاحب ، وذلك عام ٣٨٥ هـ ٠

ـ ٣ ـ

ويحتل أبو دلف منزلة ضخمة بين الرحالة المسلمين والجغرافيين العرب على مرور الأيام ٠

ويعـد من أشهر الرحالة المسلمين فى القرن الرابع الهجرى ، وقـد بهـر العالم بمـا قام به من رحلات ، وما كتبـه عن مشاهداته ووصـافه للبلاد التى رحـل اليها وطاف بها ٠٠ وقـد حفظ لنـا ابن النـديم فى كتابه « الفهرست » وياقـوت فى « عجائب المخلوقات » ، « آثار البلاد » مقتطفات كبيرة من وصف أبى دلف للبلاد التى جابها ٠ والأسفار التى قام بها رحالتنا العالمى المسـلم أبو دلف فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، فى أنحاء كثيرة من العالم المعروف آنذاك : الهنـد والصين ، وآسيا الوسطى ، وهى الأسفار والرحلات التى طار ذكرها ، وشهر أمرها بين الناس فى عصر أبى دلف وبعـد عصره حتى اليوم ، والتى نال أبو دلف بهـا فى حيـاته مجـدا كبيرا ، قـاده الى قصـور الملوك والوزراء والأمراء ، ونال بهـا بعـد وفاته مجـدا تليدا خالـدا فيما كتبه عنه أعـلام المستشرقين من كتـابات ، وما حفلت به دوائر الاستشراق عن رحـلاته من معلومات ، وما سـجل عنه فى دوائر المعارف من عجائب الكشوف الجغرافية ٠

يصـفه ابن النـديم(٢٧) بالجـوالة ، ويذكر القزوينى أنه كان جـوالة مشهورا جاب البلاد وشاهد عجائبها(٢٨) ، وأنه كان سياحا زار البـلاد ، وأخبر بعجائبها(٢٩) ٠

---

(٢٧) ٣٤٦/١ الفهرسـت ٠
(٢٨) ٢٦٧/٢ آثار البـلاد ٠
(٢٩) ٩٧ عجـائب المخـلوقات ٠

ويذكر كذلك القزوينى بلاد بهى وعجائبها وهى من بلاد الترك ، ثم يقول : أخبر بهـذه كلها ، أعنى بلاد الترك وقبائلها ، مسعر ، فانه كان ســياحة رآها كلهــا(٣٠) ·

وما كتبه أبو دلف عن سياحاته ورحلاته يشهد لـه الباحثون من المستشرقين بالدقـة والصـدق والواقـع ، وان كان ياقـوت الحمـوى يقول عنه : انه كان يحكى عنه الكذب(٣١) ، ويعنى بذلك أن رحـلاته كان بعضها من نسج الخيال ، وتكفل لنـا بالرد على هذا الاتهام كراتشوفسكى وسواه من المستشرقين ، وسيأتى كلامهم ·

ولقـــد كان أبو دلف أحـــد الباحثين المعـدودين الذين مكنتهم وحـدة الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى من القيام برحلات خطيرة ، على جانب كبير من الأهمية ·

فمع أن العالم الاسلامى فى عصر أبى دلف ، وهــو القرن الرابع الهجــرى ، كان مقسما الى دول كثيرة ، استلبت عن خلافـة بغـداد ، وتركت التبعية السياسية للخلفاء العباسيين ، الا أنه كان موحـد العقيدة واللغـة والثقافة والحضارة ، خاضعا للتأثير الاسلامى وحـده ، ومن ثم كان فى امكان أبى دلف أن يجرب البـــلاد ، وان يسير فى للمـالك الاسلامية ، للبحث والكشف والتنقيب ، لا يحـده حـد ، ولا يغـله قيد ، ولا يحــول بينه وبين نهمه العلمى حائل ·

وقـد ألف أبو دلف « الرسالة الأولى » وتحتوى على رحلتـه غبر الصين والهند التى قام بها عام ٣٣١ هـ ٩٤٢ م ، وقـد قـــام المستشرق الألمــانى رور صــوبر عام ١٩٣٩ بتحقيقها ، ويبـدو أن أبا دلف جمـع مادتها من الذاكرة بعـد قيـامه برحلته هـذه بمـدة تطـول أو تقصر ، وتتضمن لرسالة الى جانلا صـدقها الكثير من المعـــلومات التقريبية والخيالية عن هـذه البلاد الواسعة ، التى ساح فيها ·

---

(٣٠) ٨٥٩ المرجـع السـابق ·

(٣١) ٣٢٦/٥ معجم البلـدان لياقـوت ·

وفى مقدمة هذن الرسالة يقول أبو دلف(٣٢) ٠

« انى لما رأيتكما يا سيدى - اطال الله بقاءكما - لهجين بالتصنيف ، مولعين بالتأليف ، احببت أن لا أخلى دستوركما ، وقانون حكمتكما ، من فائدة وقعت الى مشاهدتها ، وأعجوبة رمت بى الأيام اليها ، ليروق معنى ما تتعلمانه السمع ، ويصبو الى استيفاء قراءته القلب ، فرأيت معاونتكما ، لما وشج بيننا من الاخاء ، وتوكد من المودة والصفاء » ٠

والظاهر - كما ارجح - أنه يخاطب احد الملوك الساسانيين والصاحب بن عباد ، وأنه حين كتب هذه الرسالة اهدى منها نسخة الى هذا ، واخرى الى ذاك ، وهذا يدل على انه كتبها بعد عهد طويل من قيامه بالرحلة ٠

وقد كتب كثير من المستشرقين روايات طويلة عن هذه الرسالة :

درسها وستنفلد عام ١٨٤٢ ، وسلوزر عام ١٨٤٤ وطبعها وترجمها الى الألمانية ، وشاركة فى ذلك المستشرق فراين فى « مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية التى نشرها عن الشرق الأقصى ٠

والقى المستشرق الروسى غريغوريف عام ١٨٧٦ بحثا عنها فى المؤتمر الدولى الثالث عشر للمستشرقين المنعقد فى بطرسبرج ٠

ودرسها روزن ، وماركفارت (١٩٠٣) ، ووضح خط رحلة أبى دلف الى الصين ٠

وكذلك فعمل بارتولد ، ومينورسكى (١٧٦٧) الذى قال عنها : أن فى الرحلة من الوقائع بعضها حقيقى ، وبعضها من نسج الخيال ، وفى وصف ابى دلف لرحلاته - كما يقول مينورسكى - خلط وتعقيد

---

(٣٢) ٤٠٨/٥ و ٤٠٩ معجم البلدان ٠

شديدان ، وان كان يعد خلاصة للمعارف الجغرافية آنذاك عن الصين والهند ، ويشكك اخيرا هذا المستشرق فى حدوث رحلات أبى دلف ٠

ويرد عليه كراتشكوفسكى فى كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى »(٣٣) مؤكدا أن رحلة أبى دلف الى الصين واقعة حقيقية لا شك فيها ، ويؤكد حدوثها روايات ابن النديم فى كتابة « الفهرست » عن أبى دلف(٣٤) ٠ بل أن الرجل لم يترك أدنى شك لدى خبير بالموضوع مثل فيراين (١٩١٣) ٠

ويؤكد رور صوير (١٩٣٩) أنه لا أساس للقول بأن الرحلة من نسج الخيال ، اذ أن بعض التفاصيل المتعلقة بها وجدت دلائل على صحتها فى سفارات متأخرة ، مثل سفارة شاهرخ ، كما أكد الباحثون دقة ملاحظات أبى دلف فى محيط الظواهر الطبيعية والتاريخية وفى وصفه لمشاهده عامة ٠

وفى هذه الرحلة يذكر ابن دلف الأوانى الصينية وانهـا كانت مفضلة فى الأسواق ، وأن الخزف الصينى كان يقلد فى بعض البلدان ، ولا سيما فى مليبار وايران ٠

وفيما بين عام ٣٣١ ـ ٣٤١ هـ : ٩٤٢ ـ ٩٥٢ م ، زار أبو دلف بتشجيع من الصاحب الوزير على ما أظن وكما اشار الى ذلك الثعالبى ق « اليتيمة » ، أمكن مختلفة فى ايران وآسيا الوسطى فى حماية الوالى على سيستان من قبل ابى محمد بن أحمد (٣٣١ ـ ٣٥٢ : ٩٤٢ ـ ٩٦٣) والف ابو دلف فى وصف هذه الرحلة ومشاهد منها عبر ارمينية وأذربيجان وايران رسالة سماها « الرسالة الثانية » ، ويقول فى مقدمتها على طريقته نفسها فى مقدمة الرسالة الأولى ٠

« جردت لكما ، يا من أنا عبدكما ، ادام الله لكما العز والتأييد ،

---

(٣٣) ص ١٨٩ من الكتاب ٠

(٣٤) ٣٤٦ و ٣٤٧ الفهرست : ٣٥٠ و ٣٥١ الفهرست ايضا ٠

والقـدرة والتمكين ، جملة من سفرى من بخارى الى الصين ، ورجوعى منها على الهنـد ، وذكرت بعض أعاجيب ما دخلته من بلدانها ، وسلكته من قبائلها ، ورأيت الان تجريد رسـالة ثانية ، تجمـع عامة ما شاهدته وتحيط بأكثر ما عاينته · لينتفع به المعتبرون ، ويتدرب به أولو العـزة والطمأنينة ، ويثقف به رأى من عجز عن سياحة الأرض »(٣٥) ·

واللذان يوجه هما أبو دلف اليهما فى هـذه الرسالة هما اللذان وجه اليهما الرسالة الأولى ، كما يبـدو من هـذه المقـدمة الموجزة الصغيرة ·

ولهـذه الرسالة الثانية فى وصف رحلته فى أواسط آسيا أهميـة كبيرة ، كما سنذكر بعـد قليـل ·

وتبـدأ وقائع هـذه الرحلة التى تسجلها الرسالة الثانية من مدينة « الشيز » فى جنوبى أذربيجان لتشمل أماكن كثيرة فى خراسان وايران والقوقاز وأرمينية · ومن هنـا كانت الرسالة الثانية من المصادر العربية القيمة ذات الفائدة الكبيرة للتاريخ العام والتاريخ الجغرافى والجيولوجى والأثرى لهـذه البـلاد ، وهى الى الى جانب هـذا تحتوى على كثير من الأشياء الطريفـة ، والمشاهدات العجيبـة ، والنـوادر الغريبة ، وبعضها ممـا يحير العقـول ·

وتتميز هـذه الرسالة بتركيز شـديد ، ودقـة متناهية وموضوعية غريبة ، كما تتميز بمادتها العلمية القيمة التى تضعها فى عـداد المصادر الأولى للتاريخ العام والجغرافى لآسـيا الوسطى · وتحتـوى على معلومات جلية متعلقة بالمصادر النفطية فى باكو ، وعن المعادن المفيدة فى ارمينية ، وأبو دلف أحـد الرحالة الأوائل الذين تحـدثوا عن استخراج النفط فى باكـو ، وما أروع ما كتبـه عن معـدنيات وطواحين تفليس ،

---

(٣٥) ٢٩ و ٣٠ الرسالة الثانية طبع القاهرة ، نشر عالم الكتب ـ مطبعة مخيمر · وقـد وردت كلمة ثانية ، فى الرسالة (ص ٢٩) محرفة الى كلمـة « شـافية » وهى خطأ ·

ولا يستغنى عن دراســـتها مؤرخ او جغرافى او جيولوجى ، وفيها يذكر ابو دلف أكثر من اربعين موضعا يوجـد فيها المعـــادن ، وأماكن اخرى فيها آثار للفرس أو للساسانيين ٠

ولقـد حقق مينورسكى هـذه الرسالة ، وطبعت بمصر عام ١٩٥٠ فى ٣١ صـحفة بالنص العـربى + ١٣٦ صـفحة الترجمـــة الانجليزية والدراســـة ٠

ثم طبعت فى موسكو بتحقيق خالدوف وبلغاركوف عام ١٩٦٦م ٠

وطبع تحقيقهما فى القاهرة بترجمـــة محمـــد منير موسى عام ١٩٩٦٦ م ٠

وفى عام ١٩٢٤ عثر فى مدينة مشهد الايرانية على مخطـوطة تشتمل على اربع رســائل :

١ - رســالة ابى دلـف ٠
٢ - رســالة ابن فضـــلان ٠
٣ - رســالة فى أخبار البلـدان لابن الفقيه ٠
٤ - رســالة اخـرى ٠

وأصبح لهـذه المخطوطة اهميـــة كبيرة فى تراث ابى دلف ، وفى تاريخ البحث العلمى الجغرافى القـديم ٠

ورســالة ابى دلف فى مخطوطة مشـــهد تشتمل على رســالتيه الأولى والثانية وقـد ذكرت على أنهما كتاب واحـد ٠

ويبـدو أن هـذا الكتاب كان قـديما يسمى « عجائب البلدان » كما نقلنـا عن القزوينى وياقوت ، وذكره بهـذا الاسم كذلك بروكلمان ٠

وابو دلف فى رحلاته يعنى عناية شديدة بذكر أماكن المعـادن والآثار ، وطالمـا يقف أمام الأشياء وقفة تامل للوصول الى دخائلها ٠

ومن اهمية البحث الجغرافى الذى قـام به أبو دلف انه عرض لمدينة الشيز ، وهى بين المراغة وزنجان وشهر زور ، وتوجـد الآن فى وادى ساركوتز فى الاتحاد السوفيتى · ومن وصف أبى دلف لهـذه المدينة : أمكن للعلماء الروس تحـديدها واستخراج آثار تخت سـليمان من تحت طبقاتها الأرضية · ومن مثـل تحقيقاته العلمية ما ذكره فى صعوده الى قمـة جبـل ديكاوند فى فارس ودخـوله كهفـا فى هـذا الجبل ورصـده لظاهرة وجـود نار مشتعلة فيـه(٣٦) ·

ويذكر أبو دلف أنه سار فى مغـارة خوارزم ، ورأى بها آثارا كثيرة لجماعة من ملـوك العرب والعجم ، ويتحـدث عن انخساف بعض قراها تحت الأرض بنحـو مائة قامة ·

ويشكك بعض الباحثين فى وصول أبى دلف الى خوارزم بدعوى أن معلوماته عن هـذه البـلاد عامة ضحلة ، ولكن ذلك لا يقف حجـة لهـذا الشـك ·

وبعـد فقـد كان ابو دلف ابن ينبـع ، من أعظم الرحالين الجغرافيين المسلمين ، الذين ظهروا فى القرن الرابع الهجرى · وقـد نالت رسـالتاه أعظم اهتمام فى عـالم الاستشراق ، وأولاه المستشرقون كثيرا من العنـاية والدراسـة والبحث ·

وعمل أبى دلف فى ميدان الرحلة متعـدد : فهـو يظهر لنـا فى صـورة الرحالة الوصاف للجغرافية الاقليمية القـديمة ·

كما يظهر فى صـورة الجغرافى المتمـكن ، والأثرى المنقب ، والجيولوجى الدقيـق العـالم بطبقـات الأرض وصخورها ، ممـا يرفـع من منزلته بين العلمـاء ·

---

(٣٦) الرسـالة الثانيـة ص ٨٧ ·

ويظهر لنا كذلك فى صورة الطبيب الذى يعلم أماكن المصحات الطبيعية التى تلائم طبيعة المرضى والتى تساعدهم على الشفاء ٠

ويصدق عليه ما قاله المسعودى عن نفسه : « قطعنا بلاد السند والزنج ، والصين والزانج ، فتارة بأقصى خراسان ، وتارة بأواسط أرمينية وأذربيجان »(٣٧) ٠

- ٤ -

وقد عاش أبو دلف عالم ينبع وأديبها وشاعرها فى عصر ازدهار الشعر ونهضته فى القرن الرابع الهجرى ٠

وشهر - أول ما شهر ابن ينبع - بالشعر ، فقصد به ملوك الساسانيين ووزراءهم يمدحهم ، وينشد فيهم القصائد الطوال ، ثم ذهب الى البويهيين ، ملوكهم ووزرائهم ، فمدحهم بقصائده الجياد ٠

ومن الأسف أن شعر أبى دلف أو ديوانه يعد مفقودا حتى اليوم ، ولا نعرف له الا القليل جدا من شعره ، مما سجله الثعالبى فى « اليتيمة » ، ومن أهم ما حفظه الثعالبى لنا من هذا التراث الشعرى قصيدة أبى دلف - أو رائيته الساسانية ٠

---

(٣٩) مقدمة الجزء الأول من مروج الذهب للمسعودى (ت ٣٤٦ هـ) ٠

الفصـل الرابـع

أبو دلف فى كتابات الباحثين - عصره - صـور من حياته

ابو دلـف فى كتـابات الباحثين :

ابو دلف شاعر عربى كبير ، مجهول شانه ، مغمور تاريخه ، لم يذكره الا القـلة من المؤلفين القـدماء ، ونسيه المحـدثون نسيانا تاما ٠

وهـو من الجزيرة العربية ، من ينبع عاش القرن الرابع الهجرى كله او جلـه ، يجـوب البلاد ، ويمدح الملوك ، وينادم الأمراء والوزراء، تراه مطوفا فى كل مكان من بخارى الى الصين والهند ، ومن فارس الى ارمينية وأذربيجان وطبرستان ، وبلاد الأكراد ، ويصف كل ما شاهده ، ويدون كل ما يلاحظه ، فى دقـة تامة ، وعناية بالتفاصيل ، مما اذهـل اوستشرقين ، فكتبوا عنه جغرافيا من الطراز الأول ، ومن اشهر الرحالة فى القرن الرابع ٠

وأبو دلف من هـــذا الجانب مصـــدر اصـــيل لكل الجغرافيين المسلمين ، الذين أتوا بعـده ، ومن بينهم : ياقوت الحمـوى فى كتـابه « معجم البلـدان » ، والقزوينى فى كتابيـه : « عجـائب المخـلوقات » و « آثار البـلاد » ٠

والمصـدر العربى القـديم الذى ترجم لأبى دلف شاعراً ترجمـة ادبية ، ليس فيها شىء من التفصيل عن حيـاته ، هـو كتاب « يتيمـة الدهـر » لأبى منصور الثعـــالبى شيخ الأدباء فى أواخر القرن الرابع وأوائل القـرن الخامس الهجـــرى (المتوفى عام ٤٢٩ هـ) ، فقـد ذكره الثعالبى فى البـاب السادس الذى خصـه بالشعراء الطارئين من الآفاق على الوزير الصاحب بن عبـاد ، وقال عنـه :

« ابو دلف الخزرجى الينبوعى ، مسعر بن مهلهل ، شـــاعر كثير

الملح والظرف ، مشحوذ المدية فى الجدية ، خنق التسعين فى الاطراب والاغتراب ، وركوب الأسفار الصعاب فى خدمة العلوم والآداب » ، ويستمر الثعالبى فى الحديث عن ابى دلف ، فيقول : « كان ينتاب _ يقصد _ حضرة الصاحب بأصبهان ، ويكثر المقام عنده ، ويتزود كتبه _ أى رسائله التى تتضمن التوصية _ فى أسفاره » ٠

ويشير الثعالبى الى معركة الهجاء التى دارت بين أبى دلف والشاعر السلامى (٣٣٦ _ ٣٩٤ هـ) ٠

ويذكر شعرا لأبى دلف ، وقصيدته الساسانية الطويلة(١) ٠

وفى موضع آخر من اليتيمة يقول الثعالبى عنه : وكان بحضرة الصاحب شيخ يكمى بأبى دلف مسعر بن مهلهل الينبغى ، يشعر ويتطبب ويتنجم ويحسد السلامى على منزلته(٢) ٠

ويشير الثعالبى الى ابى دلف فى بعض كتبه الأخرى اشارات عابرة ، مثل كتابه « لطائف المعارف » ٠

ونجد نقولا جغرافية كثيرة عنه فى : « عجائب المخلوقات » و « آثار البلاد »(٣) ، وهما للقزوينى ، وفى « معجم البلدان » لياقوت الذى يشير الى أبى دلف فى ٣٤ اقتباسا ، ودراسات كراتشوفسكى تذكر ٢٤ اقتباسا لا يذكر فيها ياقوت اسم أبى دلف ٠

وفى دائرة المعارف الاسلامية فى مادة « مسعر » ترجمة له تبين

---

(١) راجع ٣ : ٢٥٢ وما بعدها يتيمة الدهر ٠ للثعالبى _ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ٠

(٢) ٢ : ٤٠٠ يتيمة الدهر ٠

(٣) فى كتاب « آثار البلاد » يوجد ٢٤ اقتباسا من « الرسالة الثانية لأبى دلف » وان كان لا يشير الى أبى دلف الا فى سبع منها ، وفى عجائب المخلوقات توجد كذلك اشارات كثيرة له ، وأربع اقتباسات دون اشارة الى اسمه ٠

الكثير من دراســـات المستشرقين عنـــه رحالة كبيرا ، وجغرافيـــا مشــهورا(٤) ٠

وتجيء اشارات صغيرة عنه فى كتاب « بلاد ينبع » للشيخ حمــد الجاســر(٥) ٠

وفى كتاب الأعــلام للزركلى ترجمــة لأبى دلف فى عــدة ســطور ومممــا جاء فيهـا عنه : شاغر رحالة ، وكـان يكنى بالرحالة الحجازى ، قام برحلة ممتعــة الى الشرق الأقصى ، وكتب ما شاهــده فى تلك الديار فى كتاب ضخم ، نقــله المستشرقون عنه الى مختلف اللغات الأوربية ، تجاوز التسعين من عمره توفى نحــو عام ٣٩٠ هـ(٦) ٠

ويلاحظ الشيخ حمد الجاسر على الترجمة امرين :

الأول أن الزركلى نسبه الى ينبع البحــر ، وهــو من ينبع النخل ٠

والثانى قوله : فى « كتــاب ضخم » ٠٠ ويقول العلامة الجاسر : انه ليس مجلــدا ضخما بل رســـالة ، وقــد حققها المستشرق مينورسكى وطبعت فى مصر سنة ١٩٥٥ فى ٣١ صــفحة والنص العربى والترجمــة الانجليزية والدراســة فى ١٣٦ صفحة ٠

وكلام العلامة الجاسر صحيح فى أنه ليس كتابا ضخما بل رسالة ، وأما قــوله : « ان الرسالة حققها المستشرق مينورسكى الخ » فذلك ليس عن رسالة أبى دلف فى وصف رحلته الى الشرق الأقصى ، وهى التى تسمى بالرسالة الأولى ، بل رسالة أبى دلف فى وصف رحلتــه فى آسيا الوسطى وهى التى تسمى الرسالة الثانية ٠

---

(٤) راجــع الطبعة الانجليزية الجــديدة من دائرة المعارف الاسلامية وقــد ترجم النص الانجليزى لهــذا البحث الأستاذ وديع فلسطين - الطبعة العربية لم تصــل الى هــذه المــادة ٠

(٥) ١١٧ و ١٤٥ بــلاد ينبــع ٠

(٦) ٨ : ١٠٩ الأعــلام للزركلى ٠

والرسالة الأولى لأبى دلف عنى بتحقيقها اومستشرق الألمـــانى رور صـــوير ·

أما الرسالة الثانية فعنى بتحقيقها المسشرقون الروس ، فدرسها المستشرق كراتشوفسكى ، ومينورسكى ، وحققها مينورسكى ، ثم خالدوف ويولغاكوف معا فى نصها العربى ، وهما مدرسان بجامعة لينتجراد ·

عصـر ابى دلـف :

عاش ابو دلف فى القرن الرابع الهجـــرى ، العاشر الميلادى ·· وشاهد كل أحداث هـذا القرن وغرائبه ، بما ساد فيـه من حضارة وازدهار للعلوم والآداب ، وبما سادة من تطورات فكرية وسياسية كبيرة ، كان فى مقدمتها : انتهاء نفوذ الخلافة العباسية ، باستيلاء البويهيين على بغـداد عام ٣٣٤ هـ ، وقيام الدول المستقلة عن الخلافة فى أنحاء العـالم الاسلامى الذى كانت من قبـل تجمعـه رابطـة سياسية واحـدة ، ومن هـذه الدول :

١ – الدولة الاخشيدية بمصر والشام (٣٢٣ – ٣٥٨ هـ) ·

٢ – الدولة الفاطمية بمصر والشام أيضا (٣٥٩ – ٥٦٧ هـ) ·

٣ – والحمدانية بحلب والموصـل (٣١٧ – ٣٩٤ ه) ·

٤ – والسامانية فى تركستان ، وعاصمتها بخـارى (٢٧١ – ٣٨٩ هـ) ·

٥ – والزيارية فى طبرستان ، ومن ملوكهـا الشاعر الأمير قابوس ابن وشمكير (٣٦٦ – ٤٠٣ هـ) ·

٦ – والغزنوية فى غزنة والهند ، ومن اشهر أمرائها السـلطان محمود الغزنوى (٣٨٨ – ٤٢١ هـ) ·

٧ ـ ودولة سجستان ومن أشهر أمرائها خلف بن أحمد ، وهو من أحفاد الليث(٧) بن الصفار ، وامتدت هذه الدولة من عام ٢٥٤ هـ حتى عام ٣٩٠ هـ ٠

٧ ـ الدولة العلوية فى طبرستان ، ويذكر أبو دلف طائفة من ملوكها حتى عصره(٨) (٢٥٠ ـ ٣١٦ هـ) ٠

وقد أثرت الاضطرابات والحروب بين هذه الدول فى القرن الرابع الهجرى فى أحوال البلاد الاسلامية والمسلمين ٠

نشأة أبى دلف الأولى :

لا نعلم شيئا عن حياة أبى دلف الأولى ونشأته ٠ ويلا ريب قد تثقف ثقافة واسعة ـ وشب عربيا كريما عزيز النفس ذا شخصية قوية مهيبة مرحة ، فى وسامة ولطف ٠ وكانت ينبع النخل آنذاك مركزا من مراكز العلم والأدب والشعر ، وصار أبو دلف شاعرا ، وعرف كذلك طبيبا ومنجما ، وليست « ساسانيته » بمناقضة لعزة نفسه ، فقد كانت ساسانية وفكاهة وأدب وطواف بالآفاق ٠

وفجاة ينبو بأبى دلف وطنه ، وتسير به الحياة الى الأمير السامانى نصر بن أحمد (٣٠١ ـ ٣٣١ هـ : ٩١٤ ـ ٩٤٣ م) ، فيحتل عنده منزلة عالية فى دولته ، وقد يكون الشعر أو الطب بدء صلته بالأمير ، ومهما كان ، فقد صار أبو دلف شاعر الأمير ونديمه ، وصار كذلك سفيره فى كثير من المهام الرسمية ٠٠ كما سنرى ذلك فى الفصل التالى ٠

---

(٧) ٣ : ١٨٨ ذيل تجارب الأمم لمسكويه ٠

(٨) ٨٣ و ٨٤ الرسالة الثانية لأبى دلف ، ـ نشر عالم الكتب بالقاهرة ٠

الفصـــل الخــامس

أبو دلــف فى ظــلال السامانيين

ـ ١ ـ

السامانيون(١) اسرة فارسية كبيرة لعبت دورا خطيرا فى القـرن الثالث الهجرى حتى نال اميرها نصر السامانى (عام ٢٦١ هـ) فى عهد الخليفة المعتمد على الله اســـتقلالا ذاتيا ، وظـل يحـكم بلاده من عاصمته سمرقند حتى وفاته سنة ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م ٠٠ وخلفه من ذريته :

١ ـ اسماعيل السامانى (٢٧٩ ـ ٢٩٥ هـ) ٠

٢ ـ احمــد بن اسماعيل (٢٩٥ ـ ٣٠١ هـ : ٩٠٧ ـ ٩١٤ م) ٠

٣ ـ نصر بن احمــد السامانى (٣٠١ ـ ٣٣١ هـ : ٩١٤ ـ ٩٤٣ م)، وهــو الذى عاش فى ظــلاله أبو دلف ، ولا نعرف شـــيئا عن الظروف التى قادته الى بلاط هــذا الأمير ، ولا مقــدمات صلته به ٠ وفى عهـــد هــذا الأمير السامانى كانت الدولة السامانية قــد بلغت أوج عزتهـا وذروة مجــدها ٠

٤ ـ نوح بن نصر (٣٣١ ـ ٣٤٣ هـ : ٩٤٣ ـ ٩٥٤ م) ٠

٥ ـ الى ملوك آخرين طار صيتهم فى العالم الاسلامى ، ومنهم : نصر بن نوح السامانى (٣٤٣ ـ ٣٧٦ هـ) ، ونوح بن منصــور (٣٦٦ ـ ٣٨٧ هـ) ٠

وكانت بخارى قــد صارت عاصمة السامانيين ، واصبحت تزخر بالأدباء والعلماء والشعراء والحكماء ٠

---

(١) راجــع ١١ : ٧٦ ـ ٨٢ دائرة المعارف الاسلامية ٠

وكان الجيهانى(٢) أبو عبد الله محمد بن احمد بن نصر وزيرا للسامانيين (توفى عام ٣٣٠ هـ/٩٤١ م) ، وكان يشجع الأدباء ، ويحتفى بالعلماء ، ولعله هو الذى احتضن ابا دلف ، او اتخذه كاتبا له ، وعن طريقه توطدت صلته بالملك السامانى نصر بن احمد .

— ٢ —

وفى عهد الملك نصر بن أحمد وفد الى بخارى وفد هندى برياسة الأمير الهندى كلاتلى فى سفارة هندية الى بلاط الملك السامانى ، وانجز هذا الوفد مهمته ، وعند عودتهم الى بلادهم بعث معه الملك شاعره أبا دلف ليكون مرافقا لهم .

وزار ابو دلف فى هذه الرحلة كشمير وكابل وسواحل مليار ، ووصف ذلك كله فى كتاب ألفه بعنوان « عجائب البلدان » ، والظاهر أنه مجموع رسالتيه فى وصف رحلاته(٣) .

---

(٢) راجع عنه ٢١٩ — ٢٢٣ تاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشوفسكى ، وينقل القزوينى عن الجيهانى كثيرا فى المسالك والممالك الشرقية (راجع كتاب عجائب المخلوقات للقزوينى) .

وينسب هذا الوزير الى جيهان احدى مدن خراسان ، ويقول ياقوت عنه (٣ : ١٩٥ معجم البلدان) : انه كان اديبا فاضلا . وقد الف الجيهانى كتابا فى صورة العالم — أى فى الجغرافيا — بعنوان « المسالك فى معرفة الممالك » وذلك نحو عام ٣١٠ هـ : ٩٢٢ ، وهو مفقود .

والجيهانى هو الذى شجع أبا دلف وابن فضلان على أعمالهم الجغرافية .

وهو الذى أغرى أبا زيد البلخى (٢٣٥ — ٣١٨ هـ) الفلكى بالانتقال الى بخارى ، وكان بين البلخى والجيهانى صلة وثيقة ، ولكن البلخى اعتذر له ، وألف البلخى كتابه « صورة الأقاليم عام ٣٠٨ هـ ٩٢٠ م » بتشجيع من الجيهانى . وفى مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت مخطوط بعنوان « ذكر المسافات وصورة الأقاليم لأبى زيد البلخى » وهو برقم ١٤ جغرافيا — ويذكر الاستاذ احمد عبد الغفور عطار أن نسبة هذا المخطوط الى البلخى خطأ وأنه كتاب ابن خرداذبة المطبوع بعنوان « المسالك والممالك » .

(٣) كنت أظن أنه كتاب مستقل مفقود ، ولكن أبا دلف يبدو أنه قسمه

=

وفى آخر حكم نصر بن أحمد السامانى وفد على بخارى كذلك وفد صينى ، ويقص ابو دلف قصة هذا الوفد ، فيتول(٤) :

« ان رسل ملك الصين جاءوا ليخطبوا ابنة الملك السامانى لملكهم ، فابى نصر بن احمد ذلك ، واستنكره ، لحظر الشريعة له ، فلما ابى ذلك عرضوا عليه أن يزوج بعض ولده من ابنة ملك الصين ، فأجاب فى ذلك ، فاغتنمت قصد الصين معهم » ٠

وكان ذلك نحو عام ٣٣١ هـ : ٩٤٢ م ، وقد عبر ابو دلف هو والوفد الصينى تركستان الغربية ، وتركستان الشرقية وبلاد التبت ، ودخل الصين من مدينة « مقام الباب » ، فوادى المقام ، فسند ابل العاصمة ٠٠ ويقول أبو دلف :

واقمت بسندابل العاصمة مدة ، القى ملكها فى الأحايين ، فيفاوضنى فى اشياء ، ويسالنى عن امور من امور بلاد الاسلام ، ثم استاذنته فى الانصراف ، فاذن لى بعد أن أحسن الى ٠٠ » ٠

وغادر أبو دلف الصين الى الهند حتى رجع الى بلاده عن طريق سجستان(٦) ٠

=

الى رسالتين ، وذاعت كلمة الرسالة الأولى والرسالة الثانية بدلا عن الاسم الأطلى وهو ـ عجائب البلدان » ، وقد جرى على ذلك بروكلمان ، فلم يذكر الرسالة الأولى والثانية لأبى دلف ، وانما ذكر مكانها كتاب ـ عجائب البلدان » ٠

(٤) ٥ : ٤٠٨ معجم البلدان لياقوت ٠

(٥) ٥ : ٤١٤ معجم البلدان ٠٠ وفى مروج الذهب للمسعودى المؤرخ (ت ٣٤٦ هـ) ج ١ صفحة ٣٤٩ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد : وقد رايت ببلخ شيخا جميلا ذا رأى وفهم وقد دخل الصين مرارا كثيرة ولم يركب البحر قط ٠٠ فهل يقصد المسعودى بذلك أبا دلف ؟

(٦) يروى أن الاسلام دخل الصين فى عهد الخليفة عثمان وفى عصر أحد ملوك آل تانغ يقال له : تائى جون ، ويقال أن الملك الصينى الذى

=

وزادت هــذه الرحلة من مكانة أبى دلــف فى دولة السامانيين ، ومن منزلته فى عصره ، وفى الحيــاة الاسلامية بصفة عامة ٠

وخلال حكم امبراطور الصين « هــوان تسونج » ٧١٢ — ٧٥٦ م وقعت فعلا صــدامات مسلحة بين الخلفــاء العرب وهــذا الأمبراطور فى ثلاث مناسبات معروفة وكان أعنقها عــام ١٣٤ هجرية وذلك فى معــركة « تالاس » التاريخية وفى هــذه المعركة هــزم الجيش الصينى بقيــادة « كاوهسين » على يد الجيش العربى وســجلت هزيمة كبرى فى ســلطة الأمبراطور « تانج » وسط آسيا وبدأت السيطرة العربية على هـــذا الجزء من العــالم ٠

ويقــول التاريخ الصينى المخطوط فى هــذه المنطقـــة أن علاقات الصــداقة قــد عادت بعــد ست سنوات بين الشعبين الصينى والعربى ٠٠ بل ان شعبنا العربى ساعد بالجنود العرب المسلحين بلاط تانج لاحباط عصيان يقــوده جنرال الحــدود « آن لوشان » ٠

وأول من كتب عن الاسلام باللغــة الصينية هــو « تدهــوان » الذى كان قــد أسر فى معركة « تالاس » ثم قضى نحــو ١١ — ١٢ سنة وهــو يتجــول فى شبه الجزيرة العربية قبــل أن يعــود الى مدينة « كانتون » مــع قافلة تجارية وقــد نقــل هــذا الأسير عــددا من الحرف الصناعية وكثيرا من الفنــون ٠

وأن عــددا كبيرا من البعثات والتجارة والجنود العــرب قــد زاروا الصين خــلال حكم تانج فى القرن السابع ، وحتى القرن العاشر وهـــو

=

دخــل الاسلام فى بلاده فى عهــده هــو « ســوزون » من آل تانغ أيضــا ، ويقال كذلك أن الاسلام دخــل الصين فى عصر الرسول عــام ٦٢٨ على يد صحابى هــو دهاب بن أبى كبشة ، بعثــه الرسول الى كائى هــونغ من ملوك آل سوتى ٠

الزمن الذى دخل فيه الاسلام الى الصين ·· وقد ظهرت آثار حول الاسلام والعرب فى هذه الفترة ولكنها قليلة جدا ·

فهناك اللوحة الشهيرة النادرة التى تشير الى تاريخ بناء جامع شيان فى السنة ٧٤٢ لحكم منج ، والمعلومات الأكيدة تثبت بناء هذا المسجد فى القرن السادس عشر ·

كما أن مئذنة مسجد برزتج ،وكذلك القبر الملاصق له والذى يقال أنه قبر « الوقاص » من صحابة النبى صلى الله عليه وسلم،قد ثبت أنه بنى أيام حكم « سونج » بالقرن العاشر الى الثالث عشر » كما أنه ليست هناك أية اشارة فى التاريخ الصينى الى هذا الموضوع ·

ولكن هناك قول فى الصين بأن مدافن الملائكة فى ليخشان بشوانشكو بمقاطعة فوكين والذى يطلق عليها القبور المقدسة لملائكة الرحمة وتنسب للملاك الثالث والملاك الرابع اللذين أتيا للصلاة كما يقولون ، هنا خلال حكم تانج وقد وصفوهم بالملائكة لأنهم أول المسلمين فى هذه الديار ·

ولكن هذه القبور فى الحقيقة هى قبور عربية لأولئك العرب الذين عاشوا أيام حكم سونج عندما كان العرب ينظرون الى هذه المقاطعة ويسمونها مقاطعة الزيتون وهى اكبر ميناء فى العالم كما وصفها الرحالة العربى ابن بطوطه ·

وقد اكتشف فى الأسابيع الماضية بمقبرة سيان الاسلامية ثلاث قطع لعملة ذهبية عربية وهذه بقايا أصلية لهذا العصر الاسلامى فى المنطقة ·· وقد فحصت هذه المقبرة والتى اكتشفت حديثا عام ١٩٦٤ وحفرت عام ١٩٦٥ بواسطة لجنة الآثار الصينية ·

وقد اتضح أن هذه المابر شبيهة بنفس المقابر الخاصة فى نفس الفترة من الزمن والتى عثر عليها فى مدينة سيان عاصمة الصين

قديما وقد بنيت قباب القبور من الطوب المربع الدائرى وله باب فى الناحية الجنوبية يفتح على ممر له قبة يؤدى الى منحدر ٠

وقد عثر داخل هذه القبور الحديثة على ثلاث قطع ذهبية وثلاث جرات فخارية وأنية من الخزف الصينى وعلى جانبى كل قطعة عملة توجد نقوش كتبت بالكوفية ٠

ويقول الصينيون انه منذ ظهر الاسلام فى شبه الجزيرة العربية ، فانه قد نجح فى أقل من عشرين عاما فى النفاذ الى سوريا والعراق ومصر ٠ وفى البداية لم يكن للحكام المسلمين عملتهم الخاصة بل كانوا يستخدمون عملات بيزنطه والعملة الساسانية فى بلاد الفرس والتى كانت منتشرة حينئذ ٠ ولكن سرعان ما بدأوا يصنعون عملتهم وان حافظوا على الشكل القائم ٠

وقد تم انقلاب العملة فى سنة ٧٧ هجرية « ٧٩٦ - ٦٩٧ ميلادية » حيث لم تعد ، وفق المنطق الاسلامى ، فهناك صور للبشر أو الحيوانات على العملة ٠٠ وكانت النقوش مقتصرة على اقتباسات من القرآن ٠ وقد تغيرت عملات كل البلدان الاسلامية بعد ذلك الى نفس النمط ٠٠ ويضيف رجال الآثار الصينيون قولهم :

ان هذه العملات لها أهمية خاصة ، لا لأنها أول عملات توجد فى الصين للعصر الأموى ، بل لأنها أول عملات اسلامية توجد فى الصين ٠ والعملات الاسلامية الأخرى التى وجدت فى سينكيانج تعود الى زمن متأخر جدا ، الى القرن الحادى عشر ، بل ان اغلبها قد سك محليا على يد اهالى سينكيانج بعد أن اعتنقوا الاسلام ٠

وفى عام ١٩٢٨ اكتشف البرفيسور هواهج دين بى فى مقبرة تانج فى تورفان بمقاطعة سينكيانج عملة اسلامية قديمة ٠

وقد اطلعنا فى هذه المقاطعة الاسلامية على عادات وتقاليد اسلامية والحقيقة أن الأخلاق فى الصين كلها مفخرة من مفاخر الاسلام٠

الفصـل السـادس

أبو دلـف فى ظـلال البويهـيين

ـ ١ ـ

تنقضى هـذه المشاهد كلها ، ونرى ابن ينبـع الكبير يعيش فى ظلال دولة البويهيين ، ولا ندرى كيف كان ذلك ، ولا متى كان ؟

ترك أبو دلف بخـــارى والسامانيين الى البويهيين ، ووزيرهم الشـهير ابن العميـد ، ثم وزيرهم الكبير الصـاحب بن عبـاد ، والى عواصمهم الكبرى يتنقل بينها : أصبهان والرى ، وبغـداد ، وأصـبح رفيـع المكانة عند عضـد الدولة الملك البويهى نفسه ٠

ـ ٢ ـ

وتاريخ البويهيين حافـد بالايتصـسارات الكبيرة ، فهـذه الأسرة الفارسية(١) التى بسطت نفوذها على خراسان وفارس والعراق ، انتهى الأمر بزعيمها احمـد بن بويه الى دخول بغـداد فى الحادى عشر من جمادى الأولى عام ٣٣٤ هـ فى خـلافة المستكفى بالله ، واصبح بجـوار الخليفة سـلطانا أو ملكا على الشعوب الاسلامية ، ولقب « معز الدولة » (٣٣٤ ـ ٣٥٦ هـ) ، وخلفه ابنه عز الدولة (٣٥٦ ـ ٣٦٧ هـ) ، ثم عضـد الدولة (٣٦٧ ـ ٣٧٣ هـ) ، وغيرهما من ملوك البويهيين ٠

واستبد البويهيون بالخلفاء استبدادا كبيرا ، فلهم الملك والنفـوذ والسـلطان ٠

---

(١) ينسب البويهيون أنفسهم الى بهرام جـور (٨ : ١٩٧ ابن الأثير) ٠ وبهرام جـور هـو القيصر الساسانى بهرام الخامس (٤٢٠ ـ ٣٤٨ م) ٠ وأحمد معـز الدولة ، والحسن ركن الدولة (٣٢٠ ـ ٣٦٦ هـ) ، وعلى عماد الدولة : حكم هـؤلاء الاخـوة الثلاثة العالم الاسلامى باسم الخليفة العباسى ٠ وأقام معز الدولة فى بغـداد ، وركن الدولة فى الرى ، وعماد الدولة فى شيراز ٠

وصار الذى فى ايدى العباسيين انمـا هـو امر دينى اعتقادى لا ملك دنيوى كما يقول البيرونى (ت عام ٤٤٠ هـ) فى كتـابه « الآثار الباقية »(٢) ، وحتى صار الخليفة لا يأمن على نفسه وحياته من بطش البويهيين متى أرادوا ٠

خلعـوا المستكفى بالله بن المكتفى (٣٣٣ ـ ٣٣٤ هـ) ، وولوا مكانه المطيع لله بن المقتـدر (٣٣٤ ـ ٣٧٣ هـ) ثم خلعـوه ومات بعـد عـام ، وولوا مكانه ابنه الطائع لله (٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ) ، وخلعـوه وقبضوا عليـه وعـذبوه وولوا مكانه القادر بالله (٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ) ، فقـال فى ذلك الشريف الرضى :

امسيت أرحم من اصبحت اغبطه
لقـد تقارب بين العـز والهـون

ومنظر كـان بالسراء يضحـكنى
يا قرب ما عاد بالضراء يبكينى(٣)

ومن اشهر وزراء البويهيين وزيران :

أولهما : أبو الفضل محمـد بن العميد (٣٠٠ ـ ٣٦٠ هـ) وكان امام عصره فى الأدب والكتابة والبلاغة ، كما كان لـه مجـده وهيمنتـه وسلطانه السياسى فى دولة البويهيين ، وكان وزيرا لركن الدولة البويهى (٣٢٠ ـ ٣٦٦ هـ : ٩٣٢ ـ ٩٧٦) وذلك من عام ٣٢٨ هـ ـ ٩٣٩ م ٠

وقـد بدأ أبو دلف يتصـل به ، والظاهر أنه اقبل عليه ثم اعرض عنه ، فهجاه أبو دلف ، ورد عليـه ابن العميد ، مهـددا برسالة طويلة

(٢) ٢ : ١١٣ المرجـع ٠
(٣) ٢ : ٨٦٧ ديوان الرضى ، ٣ : ٢٠٢ تجـارب الامم لمسكويه ، كتـاب « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى » ٠

رواها أبو حيـــان التوحيدى فى كتـــابه « مثالب الـــوزيرين »(٤) ، وجاء فيها :

« الآن علمت أيها الشيخ انك لى مكايد ، والى جميع ما أنهـاك عنـه مخالـف ، وعلى ديدنك المعـروف ثابت ، وبفضـله لسانك مسحـــور ٠٠ » ٠

الى ان يقـول ابن العميد :

« تقاعست عنى بلا عـذر ، ووقفتنى بين وصـل وهجر ، فلم ادر كيف أخاطبك ؟ وعلى ماذا أعاتبـك ؟ لأنك مشـــهور بقحة ، ومذكـــور بسلاطة ، ومعتاد للبهت ، وجار على الكـذب » ٠

« وأول ذلك أنك تدعى بنوة محمـد بن زكريا من ناحية ابنته ، وقـد شاهدت محمدا وما خلف بنتـا » ٠

ثم يقـول ابن العميد فى غضب ظاهر :

ان فى الموت خلاصا منـك ، ومفارقة لمثلك ، والله ما أذنب الا حسن ظنى بك ، ومباهاتى أهـل مجلسى بفضلك ، وقـولى : « أبو دلـف ؟ لا تنظروا الى هزله ، فان وراء ذلك جـدا ، وهـو المرء الذى قـد جمع الله لـه بين المنظر والمخـــبر ، وبين الدعـوى والبينة ، وبين القـــول والحجـة ، وبين الضمان والوفاء ، وبين الصـداقة والشفقة » ٠

« فما زلت اقـول هـذا وشـــبهه ، وأصـحابى يشيعون قـولى بمثله فى الظاهر ، ويخالفوننى بعلمهم فى الباطن ، حتى كان الفـلج لهم ساعتى هـذه ، لأنى احتجت الى غلمـــك فخيبت غهـدى ، وأقبلت عليـك فأعرضت عنى ، ووهبت لك كلى ، فبخلت ببعضك على ٠٠ ولقد استفدت بمعرفتك تجنب مثلك ٠٠ » ٠

---

(٤) ص ٢٨٩ - ٢٩٢ المرجـع المذكـور ٠

ويقـول أبو حيـان التوحيدى(٥) :

قلت لأبى دلف : ما اجبته عن هـذا الكلام ؟

قال : عملت شيئا لم أجسر على اظهاره ، وخفت صولته ونكايته، وشره وغائلتـه ٠٠

وتوفى ابن العميد عام ٣٦٠ هـ وولى ابنـه أبو الفتح منصب أبيه فى عهد ركن الدولة ، ثم فى عهـد مؤيد الدولة الذى كان يؤثر تلميـذ ابن العميد الصاحب بن عباد ويقـدمه وانتهى الأمر بمقتل أبى الفتـح الوزير عام ٣٦٧ هـ ٠

اما الوزير الثانى من وزراء البويهيين الكبار : فهـو الصاحب ابن عباد (٣٢٤ ـ ٣٨٥ هـ : ٩٣٦ ـ ٩٩٥ م) الوزير البـويهى الكبير طيلة ثمانية عشر عاما (٣٦٧ ـ ٣٨٥) ٠

وصار أبو دلف قريب المنزلة من الصاحب(٦) ، يجلس فى مجالسه فى أصبهان والرى منادما ، ومادحاً ، وكان الصاحب نـدرة الدهـر ، وأعجـوبة العصر(٧) ، وظـل وزيرا مدى ثمانية عشر عاما (٣٦٧ ـ ٣٨٥ هـ) ، وكانت لـه خزانة كتب فيها نحـو ربع مليون كتاب(٨) ٠

وقـد احتف بالصاحب من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضـل ، وفرسان الشعر ، من يربى عـددهم على شـعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم فى الأخـذ برقاب القوافى ، وملك رق المعـانى ٠ فانه لم يجتمع بباب أحـد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد

---

(٥) ٢٩٢ مثالب الوزيرين ٠

(٦) راجع عنه : ٢٦٨/٢ ـ ٢٧٠ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ـ كتـابى الحيـاة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثـانى ـ ١٣ : ٩٧ معجم الأدباء لياقـوت ٠

(٧) ١ : ٧٥ وفيـات الأعيـان ٠

(٨) ١٣ : ٩٧ معجم الأدباء لياقـوت ٠

من فحول الشعراء المذكـــورين ، وجمعت حضرة الصاحب بن عبـــاد باصبهان والرى وجرجان مثل : ابى الحسن السلامى ، وأبى ســـعيد الرستمى ، والبديع الهمـذانى ، والقاضى الجرجانى ، وابى القاسم ابن ابى العلاء ، وابى دلف ، والصابى ، وسواهم ، ممن يطول ذكرهم كما يقـول الثعالبى فى « يتيمـة الدهـر »(٩) ٠

ويذكر الثعـــالبى أبا دلف من شـعراء الصـــاحب ومنادميـــه وجلاســـه(١٠) ٠

ويقول : وكان بحضرة الصاحب شيخ يكنى بأبى دلف مسعر بن مهلهل الينبغى ، يشعر ويتطبب ويتنجم(١١) ٠

وكان الأدباء يجـدون فى ظـل الصاحب أمنا وأمانا لهم ، ممـا حـل بالبلاد فى عهـد البويهيين من فقر مدقـع ، فقـد صارت العراق ـ كما يقـول المقـدسى ـ بيت الفتن والغـلاء(١٢) واحترف أكثر العلماء والأدباء صناعة الوراق ، كابى حيـــان التوحيدى (٣٢٠ ـ ٤١٤ هـ) وغـــيره ٠

واتصـل أبو دلـف بعضـد الدولة(١٣) الملك البويهى فى بغـداد ، وجلس فى مجالسه شاعرا ومنادما ، وتصـور لنا القصـة الآتية مكانة ابى دلف عند هـذا الملك البويهى الكبير ، وقـد رواها الثعالبى فى كتابه لطـائف المعـارف » :

---

(٩) ١٦٩/٣ اليتيمـــة ٠

(١٠) ٣ : ١٨٩ المرجـع نفسـه ٠

(١١) ٢ : ٤٠٠ المرجـــع ٠

(١٢) ١١٣ أحسن التقاسـيم ٠

(١٣) من شعراء عضـد الدولة : المتنبى ، والسلامى ، وغيرهما ٠ ومن العلمـاء الذين كانت لهم منزلة عنـــده ابو على الفارسى الذى أهـداه كتـابه « الايضاح » (٣ : ٦٨ ذيل تجارب الأمم لمسكويه) ٠

جرت بين أبى على الهائم وأبى دلف الخزرجى فى مجلس أنس لعضد الدولة بشيراز مطايبة ومداعبة - ومحاضرة ، ومذاكرة .

فقال أبو على لأبى دلف :

صب الله عليك طواعين الشام ، وحمى خيبر ، وطحال البحرين ، ودماميل الجزيرة ، وسناقر دهستان(١٤) ، وضربك بالعرق المدنى(١٥) ، والنار الفارسية ، والقروح البلخية .

فقال لـه أبو دلف :

يا مسكين ، أتقرأ « تبت » على أبى لهب ، وتنقل التمر الى هجر .

بل صب الله عليك : ثعـابين مصر ، وأفاعى سجستان ، وعقـاب شـهروزور ، وجرارات(١٦) الأهـواز .

وصب على برود اليمـن ، وقصب مصر ، ودبابيج الروم ، وخزوز السوس ، وحرير الصين ، واكسية فارس ، وحلل أصبهان ، وعمـائم الأبلة ، وسقلاطون(١٧) بغـداد ، وسنجاب(١٨) خـر خـير(١٩) ، وسمور(٢٠) بلغار ، وثعالب الخـزر(٢١) ، وفنـك(٢٢) كاشـغر ، وفاقم(٢٣) التعز غـز ، وحواصل(٢٤) هرارة ، وتكك(٢٥) ، وجوارب قـزوين .

---

(١٤) السنقر والسنقور : طائر من الجوارح اعظم من الصقر واجمل منه . ودهستان : بلـد مشهور قرب خوارزم وجرجان .

(١٥) مرض يصيب الانسان ، ينسب الى المدينة ، لكثرته فيها .

(١٦) نوع من الحشرات .

(١٦) ثياب من الحرير موشاة بالذهب .

(١٨) حيـوان تصنع منـه الفراء .

(١٩) موضع ينسب اليـه جنس من الترك .

(٢٠) دابة يتخـذ من جلدها فراء ثمينة .

(٢١) قبائل على سواحل بحر الخزر (قزوين) .

(٢٢) ثعلب صـغير .

(٢٣) حيـوان فروه من أفخم الفراء .

(٢٤) الجلود تلبس للتدفئـة .

(٢٥) رباط السراويل .

وأفرشنى : بسط أرمينية ، وزلالى قاليقلا ، ومطارح(٢٦) ميسان ، وحصر بغـداد ٠

واخـدمنى : خصان الروم ، وغلمان الترك ، وسرارى بخارى ، ووصـائف سمرقنـد ٠

وحملنى على : عتاق البادية ، ونجائب الحجـان ، وبراذين طخارستان ، وحمير مصر ، وبغـال برذعـة ٠

ورزقنى : تفـاح الشام ، ورطب العراق ، وموز اليمن ، وجـوز الهند ، وباقـلاء الكوفة ، وسـكر الأهـواز ، وعسل اصبهان وتمـر كرمان ، ودبس أرجان ، وتين حلوان ، وعنب بغـداد ، وعنـاب جرجان، واجاص بست ، ورمان الرى وكمثرى نهـاوند ، وسفرجل نيسابور ، ودشمش طوس ، وملبن مرو ، وبطيخ خوارزم ٠

وأشمنى : مسك تبت وعـود الهند ، وعنبر الشحر ، وكافور فنصـور(٢٧) وأترج طبرستان ، ونارنج البصرة ، ونرجس جرجان ، ونيلوفر السيروان(٢٨) وورد جور ، منثور بغـداد ، وزعفران قم(٢٩) ٠

فأعجب عضـد الدولة بكلام ابى دلف ، ووفـور حظـه من طوافه بالشرق والغرب ، ووقـوفه على خصائص البلدان فى كل مكان من العالم الاسلامى ٠٠ ولم يملك الا أن صاح بملء فيـه بهـذه العبارة العجيبـة التى لم يقلهـا ملك فى احـد من الأدباء أو الرعية ، قال عضـد الدولة فى تعجب ظاهر :

« لله درك يا أبا دلـف ٠٠(٣٠) ٠

---

(٢٦) بسـط ٠

(٢٧) بلـد قرب الصـين ٠

(٢٨) بلـد بالجبـل ٠

(٢٩) ٢٣٤ - ٢٣٩ لطائف المعارف للثعالبى - بتحقيق الأبيارى والصيرفى٠

(٣٠) ٢٣٩ المرجـع السـابق ٠

ملك يا أبا دلف ينادم الملوك » .

وأمر لـه بخلعـة وصـلة حسنة .

وتدل هـذه القصـة على ما يلى :

١ - كثرة طواف أبى دلف بالعـالم الاسلامى ، ووقـوفه على خصائص كل مصر من أمصاره ، وبلـد من بلـدانه .

٢ - حضور بديهتـه ، ووفرة أدبه .

٣ - ما كان يتمتع به من منزلة رفيعة عند عضد الدولة .

٤ - وفرة حظه بين منادمة الملوك وحسن مجالستهم .

وتوفى عضـد الدولة عام ٣٧٣ هـ ثم توفى بعـده بزمن ليس بطويل وزيره الصاحب ، وذلك عام ٣٨٥ هـ .

وفـاة أبى دلـف

تقاذفت الأيام بأبى دلف ، وشهد نهاية صديقيه الصاحب وعضد الدولة ، ومرت به السنوات ، من فقر لغنى ، ومن غنى لفقر ، ولم يجد كريمـا كالملك السامانى ولا كالصاحب الوزير ، ولا كعضد الدولة البـويهى .

ورأى الحيـاة من حـوله لم تعـد تحتفى بالأدب ، ولا تعير الأدباء جانبـا من رعايتهـا .

وشاهد نتائج رحلاته وطـوافه بالبلاد ، وتدويخـه للأرجاء ، تصبح وكأنها ليست شيئا مذكورا .

وتذكر زملاءه الشعراء : المتنبى ، السلامى ، القاضى الجرجانى ، وأبا سعيد الرستمى ، والبستى .

وأقرانه من الأدباء والكتاب : الخوارزمى البـديع الهمذانى ، الصابى ، الصاحب ، ابن العميد .

وقـد طوت كل هـؤلاء الأيام ، ومضت بهم الحيـاة الى مصيرها المحتـوم .

فأسلم نفسه للمقادير ، الى أن لقـى ربه نحـو عـام ٣٩١ هـ ـ ١٠٠١ م كما أرجح ، أو عام ٣٩٠ هـ كما ذكر الزركلى فى « الأعلام » ، والعلامة حمـد الجاسر فى كتابه « بلاد ينبع » نقـلا عن « الأعلام » .

الباب الثالث

رحلات أبى دلف

الفصــل الأول

الرحـــالة المسلمون قبــل أبى دلــف

اتسع نطاق الرحلات عند المسلمين اتساعا كبيرا ، بتأثير الحـج والتجارة ، والرغبة فى نشر الاســلام ، ولطلب العلم ولقـاء العلمـــاء ، ولاقتناء الكنوز العلمية والاقتصادية ، وللقيـام ببعض المهـام السياسية ، حيث كان ملوك وأمراء المسلمين يوفـدون الرسل والسفراء الى مختلف أنحـاء العـالم ٠

ومنذ خلافة أبى بكر الصـديق نجـد عبادة بن الصامت ، وهشام ابن العاص ، ونعيم بن عبد الله ، يذهبون الى القسطنطينية فى رسالة من الخليفة أبى بكر الى ملك الروم يدعوه فيها الى الاســلام ، ويقـــول عبادة بن الصامت : وأقبلنا حتى أنخنا تحت غـرفة هرقـل ، فقلنـا : لا الــه الا الله والله أكبر ، والله يعلم لقـد انتفضت الغرفة حتى كأنهـا عـذق سعفة ضربها الريح ٠

ولـما لقـوا قيصر سألهم : ما أعظم كلامكم ؟ قلنا : لا الــه الا الله والله أكبر ، فالله يعلم أنه انتفض سقفه حتى ظـن هـو وأصـحابه أنه سيسقط عليهم ٠٠ ثم دعاهم قيصر ليلا وعرض عليهم صـندوقا فيـه صور الأنبيـاء من آدم الى محمد عليـه السلام(١) ٠

واستمرت الرحـلات السياسية خلال العصور ، فنجـد عمـارة ابن حمزة يحمل رسـالة من المنصور الى ملك الروم(٢) ٠

ومن الرحلات المشهورة رحلة ســلام الترجمان الى ســور الصين

---

(١) راجـع ص ١٤١ - ١٤٣ مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه ٠

(٢) راجـع ١٣٧ و ١٣٨ المرجـع السابق ٠

الشمالى بأمر الخليفة العباسى الواثق بالله (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ : ٨٤٢ — ٨٤٧ م) ٠

ثم رحلة سليمان السيرافى ، وقد زار الهند والصين مرارا ، وكتب وصف رحلته عام ٢٣٧ هـ — ٨٥١ م ، ولهذا الوصف ذيل ألفه فى القرن الرابع الهجرى مؤلف رحالة من سيراف اسمه أبو زيد حسن ، وقد نشر هذه الرحلة المستشرق رينو عام ١٨٤٥ م ، وسليمان السيرافى أول رحالة مسلم يشير الى الشاى الذى يشربه الصينيون كثيرا ، ويسمونه « ساج » ٠

وقد قام بعده ابن وهب القرشى برحلة الى الصين نحو عام ٢٥٦ هـ/٨٧٠ م ٠

وفى كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة أن بعض التجار المسلمين وصلوا الى كوريا ٠

وفى أوائل القرن الرابع الهجرى نجد أحمد بن فضلان يقوم عام ٣٠٩ هـ/٩٢١ م برحلة الى بلاد البلغار ، وهم الشعب الذى أسس فى بداية العصور الوسطى دولتين : أقدمهما فى حوض الفولجا الوسطى (وهو نهر اتل كما تسميه المصادر الاسلامية) ، أما الأخرى ففى حوض نهر الطونة ٠

وقد زار ابن فضلان الأولى(٣) على نهر الفولجا ، ويذكر ابن رستة فى كتابه « الأعلاق النفيسة » الذى ألفه نحو عام ٢٩١ هـ/ ٩٠٣ م أن أكثر هؤلاء البلغار كانوا ينتحلون الاسلام ، بينما تذكر رحلة ابن فضلان أنهم لم يدخلوا فى الاسلام الا قبيل الرحلة بأعوام ٠

---

(٣) تطلق كلمة بلغار على الشعب ، وعلى البلاد ، وعلى عاصمتها التى كانت تقع شرقى نهر الفولجا ولا يزال بعض آثارها قائمة على مقربة من مدينة قازان الحالية على نحو ستة كيلو مترات من شاطىء الفولجا الأيسر ٠

وقد ذهب ابن فضلان مع وفد بعث به الخليفة المقتدر بالله العباسى عام ٣٠٩ هـ الى ملك البلغار لتعليم شعبه شعائر الاسلام ٠

وقد خرج الوفد من بغداد فى الحادى عشر من صفر عام ٣٠٩ هـ/الحادى والعشرين من يونيو عام ٩٢١ م ، وساروا الى بخارى فخوارزم فبلاد البلغار ، فوصلوها فى الثانى عشر من المحرم عام ٣١٠ هـ/الثانى عشر من مايو عام ٩٢٢ م ٠

وقد أدت هذه البعثة مهمتها ، ولما عادوا الى بغداد ، كتب ابن فضلان رحلته التى تعرف برحلة ابن فضلان ، ويبدو أن ما كتبه هو الذى قدمه الى الخليفة العباسى المقتدر بالله ٠

وقد نقل ياقوت الحموى جزءا من رحلته فى مادة : اتل ، وبلغار ، وخرز ، وخوارزم ٠

ونشرت الرحلة فى روسيا عام ١٨٢٣ ، وأفاد منها بروتولد الروسى فى الدراسة التى كتبها عن البلغار فى دائرة المعارف الاسلامية ، ثم عبد الوهاب عزام فى دراستين لـه عن البلغار المسلمين ٠

وفى عام ١٩٢٤ عثر العالم التركى أحمد زكى الوليدى فى مشهد على مخطوطة نفيسة احتوت على أربعة كتب ، منها رحلة أبى دلف ، ورحلة ابن فضلان ٠

وهذه الرحلة تعد أقدم وصف كتب لجزء من بلاد روسيا ، ولا يعرف رحالة سبق ابن فضلان اليها ٠ ويصف فى رحلته حفل دفن زعيم روسى ، وقد رسم أحد الرسامين الروس منذ مائة عام هذا المنظر اعتمادا على وصف ابن فضلان ، وزين بهذا الرسم أحد جدارن المتحف التاريخى فى موسكو ٠

وممن زار بلاد البلغار بعد ابن فضلان : أبو حامد الغرناطى

الأندلسى صاحب كتاب « تحفة الألباب ونخبة الاعجاب » عـام ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ م ·

وقـد تحـدث المسعودى (ت ٣٤٦ هـ - ٩٥٧ م) فى الجزء الأول من كتابه « مروج الذهب » عن البلغار ·· وقـد سقطت مملكة البلغـار نهائيا عام ١٢٣٦ م ، وخرب الروس بلادهم عام ١٣٩٩ م كما تذكر دائرة المعـارف الاسـلامية (٩٩/٤) ·

ومن نتائج هـذه الرحـلات التى قام بهـا الرحـالة المسلمون على مختلف الأجيال معرفتهم من الصينيين للابرة المغناطيسية ، وقـــد أخـذها الغرب عن المسلمين فى الحرب الصليبية الثانية ·

ومن نتائجها تدوينهم لكثير من المعارف الغنية فى تأريخ هـــذه البلاد وجغرافيتها القـديمة التى لم يكتب عنها أحـد قبـــل الرحـالة المسلمين ، ولا كتب عنها بعـدهم أحـد من الأوربيين الا بعـد أجيـــال طـــوال(٤) ·

---

(٤) راجـع : تاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشوفسكى ، الرحـالة العرب لنقولا ايادة ، والرحالة المسلمون لزكى محمد حسن ، وأدب الرحلات لشوقى ضيف من سلسلات دار المعارف المصرية عن فنـون الأدب العربى ، تاريخ التمدن الاسلامى لزيدان ، وتاريخ الحضارة الاسلامية لبارتولد ، وحـديث السندباد القـديم لحسين فـوزى ، والجغرافيا والرحلات عنـد العرب لنقـولا زيادة ، ودائرة المعـارف الاسلامية فى مادة رحلات ، رحلة ابن فضـلان بتحقيق الدكتور سامى الدهان (المتوفى فى أغسطس ١٩٧١) وهى من مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ·

الفصل الثانى

جهود أبى دلف فى ميدان الرحلات

١ - يحتل أبو دلف منزلة ضخمة بين الرحالة المسلمين والجغرافيين العرب على مرور الأيام ٠

ويعد من أشهر الرحالة المسلمين فى القرن الرابع الهجرى ، وقد بهر العالم بما قام به من رحلات ، وما كتبه عن مشاهداته وأوصافه للبلاد التى رحل اليها وطاف بها ٠٠ وقد حفظ لنا ابن النديم فى كتابه « الفهرست » ، وياقوت فى « عجائب المخلوقات » ، و « آثار البلاد » مقتطفات كبيرة من وصف أبى دلف للبلاد التى جابها ، والأسفار التى قام بها رحالتنا العالمى المسلم أبو دلف فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، فى أنحاء كثيرة من العالم ، المعروف آنذاك : الهند والصين ، وآسيا الوسطى ، وهى الأسفار والرحلات التى طار ذكرها ، وشهر أمرها بين الناس فى عصر أبى دلف وبعد عصره حتى اليوم ، والتى نال أبو دلف بها فى حياته مجدا كبيرا ، قاده الى قصور الملوك والوزراء والأمراء ، ونال بها بعد وفاته مجدا تليدا خالدا فيما كتبه عنه أعلام المستشرقين من كتابات ، وما حفلت به دوائر الاستشراق عن رحلاته من معلومات ، وما سجل عنه فى دوائر المعارف من عجائب الكشوف الجغرافية ٠

يصفه ابن النديم(١) بالجوالة ، ويذكر القزوينى أنه كان جوالة مشهورا جاب البلاد وشاهد عجائبها(٢) ، وأنه كان سياحا زار البلاد ، وأخبر بعجائبها(٣) ٠

---

(١) ٣٤٦/١ الفهرست ٠

(٢) ٢٦٧/٢ آثار البلاد ٠

(٣) ٩٧ عجائب المخلوقات ٠

ويذكر كذلك القزوينى بلاد بهى وعجائبها وهى من بلاد الترك ، ثم يقول : اخبر بهذه كلها ، أعنى بلاد الترك وقبائلها ، مسعر ، فانه كان سياحة رآها كلها(٤) ٠

وما كتبه أبو دلف عن سياحاته ورحلاته يشهد له الباحثون من المستشرقين بالدقة والصدق والواقع ، وان كان ياقوت الحموى يقول عنه : انه كان يحكى عنه الكذب(٥) ، ويعنى بذلك أن رحلاته كان بعضها من نسج الخيال ، وقد تكفل لنا بالرد على هذا الاتهام كراتشوفسكى وسواه من المستشرقين ، وسيأتى كلامهم ٠

ولقد كان أبو دلف أحد الباحثين المعدودين الذين مكنتهم وحدة الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى من القيام برحلات خطيرة ، على جانب كبير من الأهمية ٠

فمع أن العالم الاسلامى فى عصر أبى دلف ، وهو القرن الرابع الهجرى ، كان مقسما الى دول كثيرة ، استقلت عن خلافة بغداد ، وتركت التبعية السياسية للخلفاء العباسيين ، الا أنه كان موحد العقيدة واللغة والثقافة والحضارة ، خاضعا للتأثير الاسلامى وحده ، ومن ثم كان فى امكان أبى دلف أن يجوب البلاد ، وأن يسير فى الممالك الاسلامية ، للبحث والكشف والتنقيب ، لا يحده حد ، ولا يغله قيد ، ولا يحول بينه وبين نهمه العلمى حائل ٠

٢ ـ وقد ألف أبو دلف « الرسالة الأولى » وتحتوى على رحلته عبر الصين والهند التى قام بها عام ٣٣١ هـ ٩٤٢ م ، وقد قام المستشرق الألمانى رور صوير عام ١٩٣٩ بتحقيقها ، ويبدو أن أبا دلف جمع مادتها من الذاكرة بعد قيامه برحلته هذه بمدة تطول أو تقصر ، وتتضمن الرسالة الى جانب صدقها الكثير من المعلومات التقريبية والخيالية عن هذه البلاد الواسعة ، التى ساح فيها ٠

---

(٤) ٥٨٩ المرجع السابق ٠

(٥) ٣٢٦/٥ معجم البلدان لياقوت ٠

وفى مقدمة هذه الرسالة يقول أبو دلف(٦) :

« أنى لما رأيتكما يا سيدى ، أطال الله بقاءكما ، لهجين بالتصنيف ، مولعين بالتأليف ، أحببت أن لا أخلى دستوركما ، وقانون حكمتكما ، من فائدة وقعت الى مشاهدتها ، وأعجوبة رمت بى الأيام اليها ، ليروق معنى ما تتعلمانه السمع ، ويصبو الى استيفاء قراءته القلب ، فرأيت معاونتكما ، لما وشج بيننا من الاخاء ، وتوكد من المودة والصفاء » •

والظاهر — كما أرجح — أنه يخاطب أحد الملوك السامانيين والصاحب بن عباد ، وأنه حين كتب هذه الرسالة أهدى منها نسخة الى هذا ، وأخرى الى ذاك وهذا يدل على أنه كتبها بعد عهد طويل من قيامه بالرحلة •

وقد كتب كثير من المستشرقين روايات طويلة عن هذه الرسالة :

درسها وستنفلد عام ١٨٤٢ ، وسلوزر عام ١٨٤٤ وطبعها وترجمها الى الألمانية ، وشاركه فى ذلك المستشرق فراين فى « مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية » التى نشرها عن الشرق الأقصى •

وألقى المستشرق الروسى غريغوريف عام ١٨٧٦ بحثا عنها فى المؤتمر الدولى الثالث عشر للمستشرقين المنعقد فى بطرسبرج •

ودرسها روزن ، وماركفارت (١٩٠٣) ، ووضح خط رحلة أبى دلف الى الصين •

وكذلك فعل بارتولد ، ومينورسكى (١٩٦٧) الذى قال عنها : ان فى الرحلة سلسلة من الوقائع بعضها حقيقى ، وبعضها من نسج الخيال ، وفى وصف أبى دلف لرحلاته — كما يقول مينورسكى — خلط وتعقيد شديدان ، وان كان يعد خلاصة للمعارف الجغرافية آنذاك

---

(٦) ٨/٥ ٤٠ و ٤٠٩ معجم البلدان •

عن الصين والهند . ويشكك أخيرا هـذا المستشرق فى حـدوث رحـلات أبى دلـف .

ويرد عليه كراتشوفسكى فى كتـــابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى »(٧) مؤكدا أن رحلة أبى دلف الى الصين واقعة حقيقية لا شـك فيها ، ويؤكد حـدوثها روايات ابن النـديم فى كتابه « الفهرست » عن أبى دلف(٨) . بل ان الرجـل لم يترك أدنى شـك لدى خبير بالموضوع مثل فيران (١٩١٣) .

ويؤكد روبر صوير (١٩٣٩) أنه لا أساس للقول بأن الرحلة من نسج الخيال ، اذ أن بعض التفاصيل المتعلقة بهـــا وجـدت دلائل على صحتها فى سفارات متأخرة ، مثل سـفارة شاهرخ ، كما أكـد الباحثون دقـة ملاحظات أبى دلف فى محيط الظـواهر الطبيعية والتاريخية ، وفى وصـفه لمشاهد عـامة .

وفى هـذه الرحلة يذكر أبو دلف الأوانى الصينية وأنها كانت مفضلة فى الأسـواق ، وأن الخزف الصينى كان يقـلد فى بعض البلدان ، ولا سيما فى ملبار وايران .

٣ ــ وفيما بين عام ٣٣١ ــ ٣٤١ هـ : ٩٤٢ ــ ٩٥٢ م ، زار أبو دلف بتشجيع من الصاحب الوزير على ما أظن وكما أشار الى ذلك الثعالبى فى « اليتيمة » ، أماكن مختلفة فى ايران وآسـيا الوسطى فى حمـاية الـوالى على سيستان من قبـل أبى محمـد بن أحمـد (٤٣١ ــ ٣٥٢ : ٩٤٢ ــ ٩٦٣ م) وألف أبو دلف فى وصف هـذه الرحلة ومشاهده فيها عبر أرمينية وأذربيجان وايران رسالة سماها « الرسـالة الثانية » ، ويقول فى مقـدمتها على طريقته نفسها فى مقـدمة الرسالة الأولى :

« جردت لكما ، يا من أنا عبد كما ، أدام الله لكما العـز والتأييد ،

---

(٧) ص ١٨٩ من الكتـاب .

(٨) ٣٤٦ و ٣٤٧ الفهرست ٣٥٠ و ٣٥١ الفهرست أيضا .

والقـدرة والتمكين ، جملة من سفرى من بخـارى الى الصـين ، ورجـوعى منها على الهند ، وذكرت بعض اغاجيب ما دخلته من بلدانها ، وسلكته من قبائلها ، ورأيت الآن تجريد رسـالة ثانية ، تجمع عامة ما شـاهدته وتحيـط بأكثر ما عاينته ، لينتفع به المعتبرون ، ويتدرب به أولـو العـزة والطمأنينـة ، ويثقف به رأى من عجـز عـن سياحة الأرض »(٩) ·

واللذان يوجـه هنا أبو دلف اليهما هـذه الرسالة همـا اللذان وجـه اليهما الرسالة الأولى ، كما يبـدو من هـذه المقـدمة الموجـزة الصـغيرة ·

ولهـذه الرسالة الثانية فى وصـف رحلته فى أواسط آسيا أهمية كبيرة ، كما سنذكر بعـد قليل ·

وتبدأ وقائع هـذه الرحلة التى تسجلها الرسالة الثانية من مدينة « الشمز » فى جنوبى أذربيجان ، وتمتد لتشمل أماكن كثيرة فى خراسـان وايران والقوقاز وأرمينية ، · ومن هنـا كانت الرسـالة الثانية من المصادر العربية القيمة ذات الفائدة الكبيرة للتاريخ العام ، والتاريخ الجغرافى والجيولوجى والأثرى لهـذه البلاد ، وهى الى جانب هـذا تحتوى على كثير من الأشياء الطريفة ، والمشاهدات العجيبة ، والنـوادر الغريبة ، وبعضها ممـا يحير العقول(١٠) ·

وتتميز هـذه الرسالة بتركيز شـديد ، ودقـة متناهية ، وموضوعية غريبة ، كما تتميز بمادتها العلمية القيمة التى تضعها فى عـداد المصادر الأولى للتاريخ العام والجغرافى لآسـيا الوسـطى · وتحتـوى على معلومات جليلة متعلقة بالمصادر النفطية فى باكـو ، وبالمعـادن المفيدة

---

(٩) ٢٩ و ٣٠ الرسالة الثانية طبع القاهرة نشر عالم الكتب – مطبعـة مخيمر وقـد وردت كلمة ثانية ، فى الرسـالة (ص ٢٩) محرفة الى كلمـة « شافية » ، وهـو خطأ ·

(١٠) ص ٣ مقـدمة الرسـالة الثانية ·

فى ارمينية ، وأبو دلف أحد الرحـالة الأوائل الذين تحـدثوا عـن استخراج النفط فى باكو ، وما أروع ما كتبه عن معـدنيات وطواحـين تفليس(١١) ، ولا يستغنى عن دراستها مؤرخ أو جغرافى أو جيولوجى ، وفيها يذكر أبو دلف أكثر من أربعين موضعا يوجـد فيها المعـادن ، وأماكن أخرى فيها آثار للفرس أو للساسانيين ٠

ولقـد حقق مينورسكى هـذه الرسـالة ، وطبعت بمصر عام ١٩٥٠ م فى ٣١ صفحة النص العربى + ١٣٦ صفحة الترجمة الانجليزية والدراسـة ٠

ثم طبعت فى موسكو بتحقيق خالدوف وبلغاركوف عام ١٩٦٦ م ٠

وطبع تحقيقهما فى القاهرة بترجمة محمد منير موسى عام ١٩٦٦م٠

وفى عام ١٩٢٤ عثر فى مدينـة مشهد الايرانية على مخطوطة تشتمل على أربع رسـائل :

١ ـ رسـالة أبى دلف ٠
٢ ـ رسـالة ابن فضـلان ٠
٣ ـ رسـالة فى أخبـار البلـدان لابن الفقيه ٠
٤ ـ رسـالة أخـرى ٠

وأصبح لهـذه المخطـوطة أهميـة كبيرة فى تراث أبى دلف ، وفى تاريخ البحث العلمى الجغرافى القـديم ٠

ورسـالة أبى دلف فى مخطوطة مشهد تشتمل على رسالتيه الأولى والثانية وقـد ذكرتا على أنهما كتـاب واحـد ٠

ويبـدو أن هـذا الكتاب كان قـديما يسمى عجائب البلـدان كما نقلنا عن القزوينى وياقـوت ، وذكرها بهـذا الاسم كذلك بروكلمان ٠

---

(١١) ص ٢٢ مقـدمة الرسـالة الثانية ٠

٤ - وأبو دلف فى رحـلاته يعنى عناية شديدة بذكر أماكن المعادن والآثار ، وطالما يقف أمام الأشياء موقف العالم المدقق الحكيم المجرب الذى يحاول فهم الأشياء والوصول الى دخائلها .

ومن أهمية البحث الجغرافى الذى قام به أبو دلف أنه عرض لمدينة الشيز ، وهى بين المراغة وزنجان وشهرزور وتوجد الآن فى وادى ساركريتز فى الاتحاد السوفيتى .. ومن وصف أبى دلف لهذه المدينة : أمكن للعلماء الروس تحديدها واستخراج آثار تخت سليمان من تحت طبقاتها الأرضية . ومن مثل تحقيقاته العلمية ما ذكره فى صعوده الى قمة جبل دبناوند فى فارس ودخوله كهفا فى هذا الجبل ورصده لظاهرة وجود نار مشتعلة فيه(١٢) .

ويذكر أبو دلف أنه سار فى مادرة خوارزم ، ورأى بها آثارا كثيرة لجماعة من ملوك العرب والعجم ، ويتحدث ، عن انخساف بعض قراها تحت الأرض بنحو مائة قامة .

ويشكك بعض الباحثين فى وصول أبى دلف الى خوارزم بدعوى أن معلوماته عن هذه البلاد عامة ضحلة ، ولكن ذلك لا يقف حجة لهذا الشك .

وبعد فقد كان أبو دلف ابن ينبع ، من أعظم الرحالين الجغرافيين المسلمين ، الذين ظهروا فى القرن الرابع الهجرى . وقد نالت رسالتاه أعظم اهتمام فى عالم الاستشراق ، وأولاه المستشرقون كثيرا من العناية والدراسة والبحث .

وعمل أبى دلف فى ميدان الرحلة متعدد : فهو يظهر لنا فى صورة الرحالة الوصاف للجغرافية الاقليمية القديمة .

كما يظهر فى صورة الجغرافى المتمكن ، والأثرى المنقب ،

---

(١٢) الرسالة الثانية ص ٨٧ .

والجيولوجى الدقيق العالم بطبقـات الأرض وصخورها مما يرفـع من منزلته بين العلمـاء ٠

ويظهر لنـا كذلك فى صورة الطبيب الذى يعـلم أماكن المصحات الطبيعية التى تلائم طبيعة المرضى والتى تساعدهم على الشفاء ٠

ويصـدق عليه ما قالـه المسعودى عن نفسه : « قطعنا بلاد السند والزنج ، والصين والرانج ، فتـارة بأقصى خراسـان ، وتارة بأوسـط أرمينية وأذربيجان »(١٣) ٠

وقـد كتب الأستاذ يحيى ساعاتى مقالا فى مجلة المنهل السعودية آسيا الوسطى جاء فيه ما يلى :

للعرب فى آسية الوسطى تاريخ طويل ، يبـدأ بسنة ٤٦ هجرية عندما وصـل الى مشارف تلك المنطقة الربيع بن الحارث ، ثم كانت حملة عبيد الله بن زياد سـنة ٥٠ للهجرة الذى افتتح بعض مدنها ومن بينها مدينة بيكند ، جاء بعـد ذلك سعيد بن عثمان بن عفان على رأس حملة توسعت فى فتوحاتها ، وأخيرا كانت حملة قتيبة بن مسلم الباهلى سنة ٨٦ هجرية التى توغلت فى المنطقة حتى بلغت حـدود الصين ، ونزل الجنـد العرب فى مدن أسية الوسطى مثل بخارى وسمرقند وفرغانة٠ وكان للعرب فى مدينة بخارى أحياء خاصة بهم « فمن حيث تدخل من باب العطارين الى باب نون لربيعة ومضر ، والباقى لأهـل اليمن ٠٠ فاذا عبرت باب بنى سـعد فهناك باب بنى أسـد »(١٤) ٠ ومـع الزمن توالت هجرات العرب الى آسية الوسطى كما أنها كانت ملجـأ للفارين ٠ ولذوى المطـامع السياسية منهم ٠٠ وقـد اندمج معظم أولئـك العـرب فى أهـل البلاد الأصليين ولكنهم ظلوا يحتفظون بأنسابهم ، وظل أهالى تلك المناطق يكنون لهم احتراما وتقـديرا ٠ وكان العرب الذين ينتسبون الى بعض الصحابة ، وخاصة الى أبى بكر وعمر وعلى من غير فاطمة

---

(١٣) مقـدمة الجزء الأول من مروج الذهب للمسعودى (ت ٣٤٦ هـ) ٠

(١٤) النرشـخى ٨٠ و ٨٢ ٠

يطلق عليهم لقب « خواجـــه »(١٥) اما الذين ينتسبون الى الحسين بن على فكان يطلق عليهم « خواجكان جويبارى »(١٦) أى الاشراف ٠

وقـد حفـظ لنـــا التـاريخ أسـماء بعض مشـاهير عرب آسـية الوسطى ، والذين قامـــوا بدور بارز فى احـداث المنطقـــة ٠٠ منهم « الخـواجة أحمد بن ابراهيم اليسوى » المتوفى سنة ٥٦٢ هجـــرية ، وهـــو من أحفاد محمد ابن على بن ابى طالب(١٧) ويعـد من رواد الأدب التركى ومن أشهر المتصـوفة الأتراك ، وهـــو من الذين نشروا الاسـلام بين بدو الأتراك فى سهوب تركستان ، ويعـد ديوان « حكمت المنسوب اليه من أكثر الكتب تداولا بين أبناء المنطقة وقـد ظـل البدو فى سهوب آسيا الوسطى يعظمون « اليسون » ومثلهم الأزبك والغرغيز(١٨) ٠

ومنهم أحمد بن العباس بن الحسن بن عياض ، وهـــو من نســـل سـعد بن عبـادة الأنصارى الخزرجى ٠ ويعـد من كبار فقهـاء الحنفية، وكان يبطن سمرقند ، وقـد استشهد فى معركة مـع كفـــار الترك فى شمال تركستان(١٩) ٠

ومنهم أيضا ناصر الدين عبيد الله بن محمود بن شـــهاب الدين الشاشى السمرقندى المعروف بـ « خواجـه احرار » وهـــو أحـد رؤساء الطريقة النقشبندية ، وقـام بدور كبير فى الحياة السياسية على عهـد التيموريين ، وهـــو من احفاد عمر بن الخطاب(٢٠) ٠

وقـد اندمج أبناء الذين سـبق ذكـــرهم وامثالهم من العرب فى الأتراك أو الفرس وهم يعـد هناك ما يربطهم بالعرب غير وثائق أنسابهم ٠

---

(١٥) دائرة المعـارف الاسلامية ٤٦٨/٨ ٠
(١٦) هامش تاريخ بخارى للنرشـخى ٠
(١٧) لســـترنج ٥٢٩ ٠
(١٨) فامبرى ، ٢٩٨ ٠
(١٩) اللكنـــوى ، ١٨ ٠
(٢٠) المصـدر السـابق ، ١٢٠ ٠

وفى العصر الحـديث كانت مفاجأة لكثير من الباحثين عندما توصل بعض المستشرقين الى وجـود بقايا من العرب يقيمـــون حـول بخارى وفرغانة ، وقشقاريا يكلمون بلهجات عربية تمت بصلة قربى الى لهجـة العراق ، وشبه الجزيرة العربية ، وقـد قـدر « أرمنيوس فاجـدى » عـددهم بـ ٦٠ ألف عربى(٢١) وفى الاحصائيات السوفياتية الرسمية لعام ١٩٢٦ كان عـددهم ٢٨٫٩٨٧ ، وفى احصائيات عام ١٩٣٩ كان عـددهم ٢١٫٧٩٣(٢٢) ، وفى الاحصاء الرسمى لسنة ١٩٥٩ الميلادية انخفض عـددهم الى ٩٠٠ (٢٣) ، وجعهم احمـد طعلت ٢٠ الف عربى يعيشون فى ازبكستان(٢٤) ·

وقـد اختلف الباحثون فى تحـديد التاريخ الذى جاء فيه هؤلاء العرب الى آسية الوسطى فذهب بعضهم الى أنهم جاءوا مـع تيمور لنك ، وقال آخرون : أنهم من بقـايا الفاتحين العرب الذين جاءوا مـع قتيبة ابن مسلم الباهلى · ويذكر نجـدة صفوة : « ان المعلومات التى استقيت نتيجة التحقيقات مـع سكان المنطقة تحمل على الظن بأن القبائل العربية الموجـودة فى آسية الوسطى قـد انتقلت اليها من أفغانستان فى موجات متعـددة قبل فترة تتراوح بين مائتين وثلاثمائة سنة(٢٥) ·

وقـد اقام العرب فى بداية الأمر حـول بخارى ثم تفرقـوا منها فنزلوا حـول سمرقند ، وفرغانة وقاشاوريا ، وهم يقطنون اليـوم فى قرى منها « عـرب ، وعـربخانة ، وغـريبهيار ، وغـرب قشـــلاق ، وعـرب مـزار »(٢٦) ·

ولعرب آسية الوسطى لهجـة عربية خاصة بهم تختلف عن اللهجات العربية فى تركيب الجمل ، وفى دخـول كلمات أعجمية كثيرة فيها ، من

---

(٢١) صفوة ، العرب فى الاتحاد السوفييتى ، العربى ، ١٢٤ ·
(٢٢) الفـكر العـربى ع ٨ ·
(٢٣) بيهم ، العرب فى آسيا الوسطى ، مجلة المعرفة ، ٥٥ ·
(٢٤) المسـلمون فى روسـيا ، ٨١ ·
(٢٥) العرب فى الاتحـاد السوفيتى ، العربى ، ١٢٤ ·
(٢٦) المصـدر السـابق ·

نماذجها : « كان ما كان ، قد حكيما كان · وقد ولد كان عنده(٢٧) ·

ويذكر الباحثون ان لهجـة عرب بخارى تختلف كليـة عن لهجـة قاشقاوريا بحيث لا يستطيع العربى الذى يقيم حـول بخارى التخاطب مـع العربى الذى يقيم حـول قاشقاوريا والمؤسف فى الأمر أن هـذه اللهجات دونت بالحروف اللاتينية ·· وذلك ممـا يباعـد بينها وبين اللهجات العربية ، وبذلك تصبح لغـة مستقلة تنتمى بأصلها الى العربية مثلها فى ذلك مثل اللغـة او-الطية المتفرعة عن العربية ·

❊ ❊ ❊

وقـد اهتم المستشرقون بهـؤلاء العـرب ويظهـــر هـذا الاهتمام فى الدراسات العـديدة التى وضعوها والتى منها :

- العرب فى الاتحاد السوفياتى لتسرتلى ·

- اللهجة العربية فى الشرق السوفيتى ليوشمانوف ·

- الخطوط الرئيسية لتطور الأدب العربى فى آســـية الوسطى لبيليـــايف ·

- تاريخ عرب آسـية الوسطى لفـولين(٢٨) ·

- لهجات العرب فى آسـية الوسطى لفينيكوف ·

- العرب فى آسـية الوسطى لفينيكوف ·

- عرب آسـية الوسطى لفينيكوف ·

- المرأة وحفظ التقاليد الثقافية عند عرب آسية الوسطى لفينيكوف ·

---

(٢٧) الغـول ، العـربى ، ٦ ·

(٢٨) العرب فى الاتحـاد السوفيتى ، العربى ، ١٢٤ ·

- تقاليد عرب بخـارى لفينيكوف ٠

- نماذج من تقاليد عرب بخـارى لفينيكوف ٠

- نقليات عرب آسـية الوسطى لفينيكوف(٢٩) ٠

- الثقافة العربية فى آسـية الوسطى لساله

- مواد لدراسة اللهجات العربية فى آسية الوسطى لتسرتلى ٠

- وصف لغـة عرب آسـية الوسطى لتسرتلى ٠

- اللهجات العربية وقواعـدها فى اواسط آسـية مع امثلة عليها لتسرتلى ، وهـو يتكون من اربعة مجلـدات ٠

الأول : نصوص فى لغـة عرب بخارى وترجمتها ٠

الثانى : نصوص فى لغـة كشغدار وترجمتها ٠

الثالث : قامـوس للمجلـدين ٠

الرابع : البحث فى لغـة عرب آسـية الوسطى(٣٠) ٠

والمؤسف أن جميع هـذه الدراسات كتبت بلغـات اجنبية ، ولم يترجم منها أى شىء الى العربية ٠

أما الدراسـات التى كتبهـا الباحثـون العرب فهى قليلة من بينها المقـالات التاليـة :

- عرب عن العرب منقطعون لمحمود الغـول نشره بمجلة العـربى سـنة ١٩٥٩ م ٠

---

(٢٩) عفيـفى ، ٩٦٤/٣ ٠

(٣٠) المصـدر السـابق ٩٦٥/٣ ، ٩٦٦ ٠

- العرب فى آسـية الوسطى لمحمد جميل بيهم نشره بمجلة المعرفة سـنة ١٩٦٦ م ٠

- العرب فى الاتحاد السوفيتى لنجـدة فتحى صفوة نشر بمجـلة العـربى سـنة ١٩٥٩ م ٠

كما ترجمت محاضرة تسرتلى التى ألقـاها فى النـدوة اللبنانية ببيروت سنة ١٩٥٦ م ونشرت بمجـلة المجمـع العلمى العـربى بدمشق سـنة ١٩٥٦ م ٠

مراجـع هـذا الفصـل

ـ بيهم ، محمـد جميل :
العرب فى آسيا الوسطى • المعرفة ع ٥٥ ، س ٥ ، ١٩٦٦ م •

ـ دائرة المعـارف الاسلامية •

ـ طلعـت ، أحمـد :
المسلمون فى روسية • بيروت ، النشر للجامعـة ، ١٩٥٨ م •

ـ صـفوة ، نجـده فتحى :
العرب فى الاتحاد السوفيتى ، العربى ، ع ١٢٤ ، ١٩٦٩ م •

ـ العقيـقى ، نجيب •
المستشرقون ، القـاهرة ، دار المعـارف ، ١٩٦٥ م •

ـ الغـول ، محمـود :
عرب عن العرب منقطعون • العربى ع ٩ ، ١٩٥٩ م •

ـ فاجـرى ، أرمينيـوس :
تاريخ بخارى تعريب أحمد محمود الساداتى • القاهرة ، المؤسسة المصرية ، ١٩٦٥ م •

ـ لسـترنج ، كـى :
بلدان الخلافة الشرقية تعريب بشير فرنسيس وكوركيس عـواد ، بغـداد ، المجمع العلمى ١٩٥٤ م •

ـ اللكنـوى ، عبـد الحى :
الفوائد البهية فى تراجم الحنفية مع التعليقات السنية • دهلى ، ندوة المعـارف •

ـ المفـكر العـربى • ع ٨ ، س ١ ، ١٩٦٩ م •

ـ النرشـخى ، أبو بكر محمـد بن جعفر :

تاريخ بخارى تعريب أمين بدوى ، ونصر الله الطرازى • القاهرة ، دار المعـارف ١٩٦٥ م •

الباب الرابع

أبـو دلـف الأديـب

الفصـل الأول

أبـو دلـف كاتبـا

أمامنا نصوص نثرية كثيرة لأبى دلف ، منها رسالتاه فى وصف رحلاته عبر الصين والهند وآسيا الوسطى ، ومنها رسائل نثرية صغيرة ٠

وهـذه النصوص تظهر لنا بوضوح شخصية أبى دلف الأدبية ٠

عنه كاتب عميق المعانى ، كثير التجربة ، غظيم الخبرة ، دقيـق الأفـكار ٠

وهـو الى جانب ذلك سمح الأسلوب ، عـذب اللفظ ، واضـح الصياغة ، وضـوح معانيه ، ليس فى أدائه تعقيد ، أو اغراب أو تكلف أو حـوشية ، أو معاظلة ٠

أسلوبه أقرب الأساليب الى سماحة أسلوب المطبوعبن ، ووضوح أساليب المعاصرين ، كأنه أسلوب صحفى معاصر ، مطبوع على البيان الجيد ، متمكن من اللغـة والبلاغـة ٠

وقـد كان أبو دلف يعيش فى عصر المطبوعين على البيان ، وفى ذروتهم ابن العميد ، والصاحب ، والخوارزمى والبديع ، والصابى ، وأبو حيان ، ،غيرهم من أعلام البلاغة والكتابة والنثر الفنى ٠

أبو دلف يتخـذ من الرسـالة مادة لعمله العلمى ، ويبعـد عـن قيود الصناعة البديعية وزخارفها ووشيها ، مع التركيز الشـديد فى رسائله ، ومـع الوصف الدقيق للأشياء التى يصفها ٠

ومقـدمتا رسالتيه تمتازان بأسلوبهما السنى السهل ، ومـع ذلك فان سـعة ثقافة الرجـل فرضت نفسها على كتابته ، فليس هناك كلمة

غريبة أو حرف قد جيء بها أو به لغير ما داع يتطلبه المعنى والغرض المسوق له الكلام ·

وأبو دلف قلما يعنى بالحديث عن نفسه وتجاربه فى كتاباته ، فهو كاتب موضوعى أكثر منه كاتبا وصفيا ·

وهو جدير باهتمامنا ، وعنايتنا وتقديرنا لعلمه وتعدد ثقافته ، وسعة جوانب شخصيته ·

ويبدو أن اتصاله الوثيق بالساسانية والساسانيين ، قد قرب أسلوبه من واقع الحياة ، ومن حاجة العصر الى الدراسات الطبيعية والطبية والعلاجية والأثرية والجيولوجية ، وجعل جانب العلم أغلب عليه ، وأظهر على أدبه من جانب الخيال والعاطفة ·

ومن العسير أن نفترض أنه لم يحى حياة الساسانيين ، فأدبه قطعة من صميم حياتهم ، وليس فيه أثر للتقليد أو الصنعة أو الزيف ، وصلة أبى دلف الوثيقة بهذا الوسط الاجتماعى المتميز جعله نموذجا حيا للساسانى الخالص(١) · وجعل من أدبه وتجاربه صورة واضحة متكاملة نظر اليها مثل البديع الهمذانى فى اكبار واجلال وتقدير ، واتخذها نموذجا فنيا فى عمله الأدبى الجديد فى فن المقامة ، مما سنحيط به فى شىء من التفصيل بعد قليل ·

---

(١) حب أبى دلف للفن وظرفه جعله يحترف الأدب الساسانى احترافا مبدعا ، حتى لم يبق فرق بين الأصل والصورة ، والطبع والصنعة ، وكذلك كنا نرى فى عصرنا أناسا يرتدون ـ من أجل الظرف والفكاهة ـ رداء أشعب فى جشعه وطمعه ، وهم أعز نفسا ، وأكرم طبعا · وعلى أية حال فهناك فرق بين النموذج والأصل أو الحقيقة ، ونحن مضطرون لأن نقول هنا ما قلناه عن ساسانيته لأن أبا دلف صور نفسه فى قصيدته الساسانية بهذه الصورة الساسانية الخالصة ، واذا علمنا أن أبا دلف عاش فى قصور الملوك ونال جوائرهم ، وكانت له ألف حرفة ـ كما يقولون ـ أدركنا أنه لم يكن ساسانى التكسب ، بل ساسانى الفن وحده ·

الفصل الثانى

أبو دلف .. شاعرا

- ١ -

عاش أبو دلف عالم ينبع وأديبها وشاعرها فى عصر ازدهار الشعر ونهضته فى القرن الرابع الهجرى ، عصر المتنبى (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ) ، والشريف الرضى (٣٥٩-٤٠٦هـ) ، وأبى فراس الحمدانى (٣٢٠-٣٥٧هـ) والوفاء (٣٦٦ - ٤٠١ هـ) ، والسلامى (٣٩٤ هـ) ، وكشاجم (٣٥٠ هـ) ، والخالديين ، وابن الحجاج (ت ٣٩١) ، والوأواء الدمشقى (ت ٣٩٠ هـ) ، والصنوبرى (٣٣٤ هـ) ، وقابوس بن وشمكير (٤٠٣ هـ/١٠١٢ م) وابن سكرة (٣٨٥ هـ - ٩٩٥ م) ، والبستى (٣٣٠ - ٤٠٠ هـ) ، وسواهم من أعلام الشعر العباسى .

وشهر - أول ما شهر ابن ينبع - بالشعر ، فقصد به ملوك السامانيين ووزراءهم يمدحهم ، وينشد فيهم القصائد الطوال ، ثم ذهب الى البويهيين ، ملوكهم ووزرائهم ، فمدحهم بقصائده الجياد .

ومن الأسف أن شعر أبى دلف أو ديوانه يعد مفقودا حتى اليوم، ولا نعرف له الا القليل جدا من شعره ، مما سجله الثعالبى فى « اليتيمة » ، ومن أهم ما حفظه الثعالبى لنا من هذا التراث الشعرى قصيدة أبى دلف - أو رائيته الساسانية ، التى سوف نتحدث عنها بعد قليل .

- ٢ -

واشهر اغراض شعره : المدح - والهجاء - والفكاهة ، وأهم أغراضه الشعرية على الاطلاق هو شعره الساسانى الذى سنتعرض له .

ولنبدأ بذكر مقتطفات مما بقى من شعره ، لنتعرف الى شاعريته ، ونقف على مدى اصالته ٠

١ - كان أبو عيسى بن المنجم الطبيب من جلساء الصاحب ، وكان الصاحب قد أهداه دابة فارهة ، فكان يركبها كلما قصد مجالس الوزير ، وهلكت الدابة أو قل نفقت ، فطلب الصاحب من شعرائه أن يكتب كل منهم قصيدة فى رثاء البرذون الراحل ، وينشدها فى مجلسه ، ويقدمها الى أبى عيسى ، فاجتمع الشعراء ، ثلاثة عشر شاعرا ، فى مجلس حافل من مجالس الصاحب ، وألقى كل منهم قصيدة(١) ٠٠ وقام شاعرنا أبو دلف فأنشد أرجوزة طويلة فى رثاء الفقيد ، ضمنها أحر عواطفه ، فماذا قال الشاعر فى هذا الموضوع ؟ استمعوا الى أبى دلف ينشد(٢) :

دهر على أبنائه وثاب
يا لك دهرا كله عقاب
أصبح لا يردعه العتاب
واها لشاء ما له اياب
لكل قلب بعده اكتئاب
ذو نسب تحسده الأنساب
قد كملت فى طبعه الآداب
كأنما غرته شهاب
كأنما لبباته محراب
لا خبر منك ولا كتاب
تناوبتك للردى أنياب

(١) ٣ : ٢١٣ - ٢٣٦ يتيمة الدهر ٠
(٢) ٣ : ٢٢٣ - ٢٢٥ المرجع ٠

تجـزع مـن أمثـالها الأحبـاب
وكنت لـو طالت بك الأوصاب
يخـف فـى مصرعـك المصـاب
وأنـت فـرد مـا لـه أتـراب
قـل لأبى عيسى : وما الاسهاب
بذافـع : تـم لـك الثـواب
فاسـكن فهـذا الصاحب الوهـاب
فى جـوده وفضـله منـاب

٢ - ويقـول أبو دلف أيضا يصف ترفـه وشجاعته(٣) :

انى امـرؤ كسروى الفعـال
أصيف الجبـال وأشتو العراق

والبـس للحـرب أثوابهـا
واعتنـق الدارعـين اعتناقا

يقول ابن الفقيه : اختـار أبو دلف بفضل رأيه أن يصيف الجبال ، ليسلم من سمائم العـراق وذبابة وسـخونة مـائه وهـوائه ، ويشتو بالعراق ليسلم من زمهرير الجبال وكثرة رياحها ووحولها ٠

٣ - ولـما طوت الأحـداث حياة أبى دلف المترفة ، فاحالته فقيرا بعـد غنى ، قال(٤) :

الم ترنى حـين حـال الزمـان
أصيف العراق وأشـتو الجبالا

---

(٣) ٢٤١ مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه - طبعة أبريل ١٣٠٢ هـ ٠
(٤) ٢٤١ المرجـع السـابق ٠

سموم المصيف وبرد الشتاء
حنانيك حالا أزالتك حالا

فصبرا على حدث النائبات
تأبى الحوادث الا انتقالا

٤ - ووقف أبو دلف أمام بعض آثار تدمر فى الشام ، فقال :

ما صورتان بتدمر قد راعتا
أهل الحجى وجماعة العشاق

غبرا على طول الزمان ومره
لم يسأما من ألفة وعناق

فليرمين الدهر من نكباته
شخصيهما منه بسهم فراق

وليبلينهما الزمان بكره
وتعاقب الاظلام والاشراق

كى يعلم العلماء أن لا دائم
غير الاله الواحد الخلاق

٥ - ولأبى دلف حكم مأثورة مشهورة ومنها أبياته السائرة(٥) :

هى المقادير تجرى فى أزمتها
فاصبر فليس لها صبر على حال

---

(٥) كتاب التمثيل والمحاسرة للثعالبى ، ومن الطريف أن هذه الأبيات لشهرتها رويت بروايات مختلفة ، ونسبت لكثير من الشعراء، منهم : الشافعى ، والواثق العباسى ، واسحاق الموصلى .

دع المقــادير تجرى فى أعنتهــا
ولا تبيتن الا خـــالى البـــال

ما بين طرفــة عــين وانتبــاهتها
يغــير الله من حــال الى حــال

وليس بين أيدينا نصوص من حكمه لأن شــعره مفقود الا النماذج القليلة التى رواها الثعــالبى ٠

٦ ـ ويذكر الثعالبى أن الصاحب الوزير بنى قصرا بأصبهان ، وانتقــل اليه ، واقترح على شعرائه أن يقولوا فيــــه شعرا ٠ وفى يوم حافــل اجتمع شـــعراؤه الثلاثة عشر فى مجلس الصاحب ، ومن بينهم شاعرنا أبو دلف(٦) ، فأنشد كل منهم قصــيدة طــويلة فى مدح الصاحب ووصف القصر ، وقــد ذكر الثعالبى هــذه القصائد ومن بينها قصيدة أبى دلف ٠ ومطلع قصــيدة أبى دلف هــو :

رأينـــا طلعـــة الـــدار شـــموسا مـــع أقمـــار
ولـــى مســـألة بعـــد فعـــاجلنى باخبـــار
بنيت الـــدار فى دنيـــا ك ، أم دنيـــاك فى الـــدار ؟

٧ ـ ولننتقل الى قصيدة أبى دلف الساسانية المشهورة العجيبة ٠٠ وقبل أن نذكرها نذكر مدلول « الشعر الساسانى » ٠

ـ ٣ ـ

الشعر الساسانى لــه بذور قــديمة فى شــعر الصعــاليك ، وفى مزاح أشعب وطبقته ، وفى أدب الجاحظ فى بعض كتاباته ٠

---

(٦) ٣ : ٢٠٢ ـ ٢١٣ اليتيمــة ٠ [illegible]

وقد عم الفقر البلاد الاسلامية فى العصر البويهى ، كما ذكرنا آنفا ، وما أقسى ما قاله أبو حيان فى كتابه « الامتاع والمؤانسة »(٧) : القوت لم يكن اليه سبيل الا باخلاق المروءة ، وتجرع الأسى ، ومقاساة الحرقة ، ولذع الحرمان ، والصبر على ألوان وألوان ، أو ما يقوله ابن لنكك البصرى :

جار الزمان علينا فى تصرفه
وأى دهر على الأحرار لم يجر ؟

وكان كثير من الساخطين والمشعوذين والمحتالين والسائلين الحواة يجوبون البلاد ، ويطوفون بالأقاليم ، ويتفننون فى اختراع الحيل للحصول على المال ، ويظهرون أحيانا أن صدقا وان كذبا أنهم مجاهدون أحيانا أو من أبناء السبيل ، أو ممن نهبت أموالهم فى الطريق ، أو مرضى ، أو غير ذلك ، فأطلق على هؤلاء بنو ساسان ، أو الساسانيون(٨) وكان جامع الاهواز مأوى الكثير منهم(٩) .

وظهر الشعراء والأدباء الذين يقولون شعرهم وأدبهم فى الاستجداء ، وفى الاحتيال على أخذ المال من أى طريق ، وقيل لجماعة هؤلاء الشعراء والأدباء أيضا : ساسانيون ، وقيل لأدبهم وشعرهم : أدب وشعر ساسانى . وكم هناك من فرق بين المدح وبين الاستجداء والاحتيال على الناس ؟

وللساسانيين لغة واصطلاحات خاصة لا يعرفها الا من كان منهم ، وتعرف هذه اللغة باسم « مناكاة بنى ساسان » ، وكان الصاحب يحفظ منها الكثير حفظا عجيبا ، كما يقول الثعالبى فى اليتيمة(١٠) ، وكان يعجبه من أبى دلف وفور حظه من هذه اللغة فى شعره ،

---

(٧) ٢ : ١٤٢ الكتاب المذكور .
(٨) ٤٦/١١ و ٤٧ دائرة المعارف الاسلامية .
(٩) ٧ أحسن القاسيم للمقدسى .
(١٠) ١٧٦/٣ اليتيمة .

وبخاصة فى قصيدته الساسانية الطويلة ، التى كتبها وقدمها(١١) الى الصاحب ، ووصف فيها حيل بنى ساسان وأساليب حياتهم ، وقد اختار منها الثعالبى فى اليتيمة نحوا من مائتى بيت ٠

هذا هو معنى الشعر الساسانى باجمال ، فمن هو ساسان الذى نسب اليه هذا الشعر ؟

قيل : هو أمير من الأسرة الساسانية(١٢) الفارسية المالكة ، حزن لما تولت أخته الملك وحرم هو منه ، فاشترى غنما ، وجعل يرعاها ، ويعير بأنه راعى غنم ، فنسب اليه كل من احترف الكدية ٠

وقيل(١٣) : أن الساسانيين كانوا شراذم الأمراء من بنى ساسان ، جاء الاسلام فذلوا بعد عز ، وافتقروا بعد غنى ، ورحلوا من مكان الى مكان ، فصارت نسبتهم الى الساسانيين نسبة عار وذل ، بعد أن كانت نسبة شرف ومجد ٠

وقيل أن ساسان كان رجلا من عامة الناس ، ماهرا فى الحيلة والاستجداء ، فنسب اليه هؤلاء ٠

وكان من الساسانيين شعراء صقل الحرمان مواهبهم ، وانضج الالم عبقريتهم ، ومنهم شاعرنا ابو دلف ، وشاعر آخر ضاهاه فى رفعة المنزلة فى الأدب الساسانى ، وهو الأحنف العكبرى ، الذى قيل عنه : أنه آدب بنى ساسان فى بغداد ، وقال الثعالبى عنه : هو

---

(١١) ٢١٨ « الأدب فى ظل بنى بويه للزهيرى » - طبعة عام ١٩٤٩ م٠

(١٢) أسرة فارسية حكمت ايران ، أولهم أردشير (٢٢٦ - ٢٤١ م) ، وآخرهم يزدجرد الثالث (٦٣٢ - ٦٥١ م) الذى سقطت الامبرطورية الفارسية فى عهده فى أيدى المسلمين (راجع ١١/٤٧ - ٥٥ دائرة المعارف الاسلامية و ١ : ١٤٢ « ظهر الاسلام لأحمد امين » ٠

(١٣) هو رأى محمد عبده فى شرحه لمقامات البديع - ص ٩٧ ٠

فرد بنى ساسان اليـوم بمدينة السلام(١٤) ٠

وقـد أكثر العكبرى من تصـوير بؤسه وحرمانه ، فيقول :

العنكبوت بنت بيتـا على وهـن
تأوى اليه وما لى مثلها وطن

ويقول أيضا :
عشت فى ذلـة وقلـة مـال
واغـتراب فـى معشـر أنـذال

بالأمـانى أقـول لا بالمعـانى
فغـذائى حـلاوة الآمـال(١٥)

---

(١٤) ١١٧/٣ اليتيمة ـ ٢٢٤ بديع الزمان للشكعة ٠

ولقـد ذكر الجاحظ ـ فى « المحاسن والأضـداد » وفى « البخـلاء » ص ٣٦ ـ الكـدية والمكـدين ٠٠ وفى المحاسن والمساوىء للبيهقى نصـوص عن الجاحظ فى ذلك (٦٢٢ ـ ٦٢٤) المحاسن للبيهقى) ٠

ويذكر بديع الزمان فى مقاماته اللصـوص وحيلهم ـ راجع المقـامة الرصافية ـ كما يذكر الكـدية كذلك ، وفى مقامته الساسانية ، التاسعة عشرة ، يدافع عن الكـدية ، ويذكر الكثير من بواعثها وقـد ذكر التوحيدى (٢/١٤٣ الامتاع والمؤنسة) الساسانيين راثيا لحالهم ٠

وفى مقامات الحريرى المقـامة الساسانية التاسعة والأربعون ، وفيها يوصى أبو زيد السروجى ابنه وولى عهده وكبش الكتيبة الساسانية من بعـده بصناعة الكدية ، وبالزهـد فى غبرها من الصناعات ، ولـو كانت امارة أو تجارة أو زراعـة أو صـناعة ٠

وأدوات صناعة الساسانيين كما صورها الحريرى : الفطنة والذكاء والوقاحة، وأن يكون الساسانى أجـول من قطرب ، وأسرى من جندب ، وكذلك الجـد والمثابرة ، فلا يسأم الطلب ، ولا يمـل الداب ، وعليه بالأقـدام ولـو على الضرغام ، مـع تحليه بالبلاغة ، بأن يكون أخلب بصـوغ اللسان ، وأخـدع بسـحر البيـان الخ ٠

ولصفى الدين الحلى قصيدة ساسانية طـويلة فى ١٤٥ بيتا ٠

(١٥) راجـع ٣ : ١١٧ ـ ١١٩ اليتيمـة ٠

ودالية الأحنف الساسانية مشهورة وفيها يقول :

علـى انـى بحمـد الله فـى بيت مـن المجـد
باخـوانى بنى ساسا ن اهـل الجـد والجـد
لهـم ارض خراسـان فقاشـان الـى الهنـد
الـى الـروم الـى الزنـج الـى البلغـار والسـند
قطعنـا ذلـك النهـج بـلا سـيف ولا غمـد

وقد هـزت هـذه القصـيدة أبا دلف ، فعارضها بقصيدته الساسانية المشهورة ، التى حشر فيها الخليفة المطيـع لله العبـاسى (٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ) ـ الذى لم يكن يملك فى ظـلال البويهيين من الأمـر شيئا ، حشره فى جملة الساسانيين الصعاليك الفقراء ، وكان ذلك ممـا يتندر به الصاحب وعضـد الدولة ، وهـو على أى حال تندر مـر لأنه يشير الى الحقيقة المرة كاملة ، اذ كان الخليفـة فى ظـل البويهيين لا شـأن لـه بشىء من أمور الخلافة والسلطان ، ويعيش دائمـا فى فقـر وحـرمان ٠

قصـيدة أبى دلـف الساسانية(١٦) :

قصيدة طـويلة ساسانية ، ذكرها الثعالبى فى اليتيمة ، وشرح كثيرا من اصطلاحاتها الساسانية ، ولهـا اهمية كبيرة ، لا فى شـعر أبى دلف ، ولا فى الشعر الساسانى ، وحـدها بخاصـة ، بل فى الشعر العبـاسى عـامة ٠

وقـد اهتم بهـا المستشرقون اهتماما شـديدا ، فعنـوا مثلا بعـدا

(١٦) ٢ : ٢٥٤ ـ ٣٧٢ اليتيمـة ٠

جاء فيها من وصف الأوانى الصينية(١٧) ٠

وهذه القصيدة تجمع ما تفرق من اصطلاحات الساسانيين ، ولا يقاربها فى هذا الباب أثر ادبى آخر الا مقامات البديع ٠

وقد استخدم أبو دلف بكثرة فى القصيدة كلمات غامضة من اللغة السرية لآل ساسان ، وقد شرحها الثعالبى وكشف عن مغاليقها ، ولولا ذلك لما فهمنا عنها شيئا ٠ وكان أبو دلف يجيد هذه اللغة تماما وقد علم الصاحب اياها بنجاح ، وقد أعلن أبو دلف أنه نفسه من زمرة الساسانيين ٠

يقول شاعرنا من هذه القصيدة :

جفون دمعها يجرى لطول الصد والهجر
وقلب ترك الوجد به جمرا على جمر
لقد ذقت الهوى طعميـ ـن من حلو ومن مر
ومن كان من الأحرا ر يسلو سلوة الحر
كأمثالى ، وفى الغربـ ـة أودى أكثر العمر
وشاهدت أعاجيبا وألوانا من الدهر
على انى من القوم الـ ـبهاليل بنى الغر
بنى ساسان والحامى الـ ـحمى فى سالف العصر

---

(١٧) « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » ، د٠ زكى حسن ٠

فنحن الناس كل النا س في البر وفي البحر

اخذنا جزية الخلق ارض خيلنا تسرى

الى طنجة ، بل فى كل من الصين الى مصر

لنا الدنيا بما فيها من الاسلام والكفر

فان ضاق بنا قطر نسر عنه الى قطر

ويقول أبو دلف فى القصيدة أيضا :

ومنا شعراء الأر ض اهل البدو والحضر

ومنا سائر الأنصا ر والأشراف من فهر

ويستطرد أبو دلف ، فيجعل الخليفة المطيع لله العباسى من جملة الساسانيين :

ومنا قيم الدين الـ مطيع الشاشع الذكر

وكان معز الدولة ثم ابنه عن الدولة قد ساموه الذل والهوان(١٨) ..

ثم يقول أبو دلف :

سقى الله بنى ساسا غيثا دائم القطر

الا انى حلبت الدهـ ـر من شطر الى شطر

(١٨) ٨٦/٦ و ٣٠٧ « تجارب الأمم » لمسكويه .

وجبت الأرض حتى صر ... ت فى التطواف كالخضر

وللغربة فى الحر ... فعال النار فى التبر

وما عيش الفتى الا ... كحال المد والجزر

فبعض منه للخير ... وبعض منه للشر

فان لمت على الغربـ ... ـة مثلى فاسمعن عذرى

أمالى أسوة فى غر ... بتى بالسادة الطهر

فان اظفر بآمالى ... شفيت غلة الصدر

وقد تخفق فوقى عز ... ة ألوية النصر

واما تكن الأخرى ... فلا أبت مع السفر

ولا عدت منى عدت ... بلا عز ولا وفر

هذه هى أبيات من القصيدة الساسانية ، التى نظمها أبو دلف، وانشدها الصاحب ، وطارت شهرتها بين الأدباء وقد اتيت على أبيات قليلة منها بعيدة عن اصطلاحات الساسانيين العويصة ٠

ولا نقول عنها الا أنها وثيقة أدبية كبيرة(١٩) الدلالة فى الشعر العباسى ، وأنها من أرفع نماذج الشعر الساسانى وهى حافلة بالبلاغة والصور والأخيلة العجيبة ٠

---

(١٩) بعد أن كتبت ذلك وجدت آدم متز « فى الحضارة الاسلامية » ، ٢ : ١٠٧ يقول عنها : انها وثيقة اجتماعية فى القرن الرابع ٠

الفصل الثالث

أبو دلف « نموذجا أدبيا رفيعا فى مقامات البديع »

- ١ -

كان ابتكار البديع الهمذانى (٣٥٨ - ٣٩٨ هـ ، ٩٦٩ - ١٠٠٧ م) فى القرن الرابع الهجرى لفن المقامة حدثا أدبيا جديدا فى الأدب العربى ٠

فلقد بهر النقاد والرواة أسلوبها ، ونزعة القصة فيها ، وهذا الحوار الذى طالما دار بين بطلها أبى الفتح الاسكندرية وراويتها عيسى ابن هشام ، كما بهرهم هذا النموذج الفنى الرفيع الذى تمثل فى شخصية الساسانى أبى الفتح البطل ٠

وفتن الناس بمقامات بديع الزمان افتتانا شديدا ٠

وليس هناك الا البديع نفسه ، فهو أبو المقامة فى الأدب العربى ، وصاحب الفضل فى انشائها ، ويؤيد ذلك الحريرى أبو محمد القاسم ابن على البصرى (٤٤٦ - ١٥١٦ هـ) فى مقدمة مقاماته ، فقد جعل ابتداع المقامات راجعا الى بديع الزمان ، وعلامة همذان ، وكذلك جعل الثعالبى فى « اليتيمة » البديع أبا عذرتها ، والواضع لأصولها وخطتها ويتابعهم فى ذلك كثيرون ، منهم مارون عبود مثلا ، اذ يقول(١) : ان خطة المقامات من عمل البديع ، فهو الذى ألبسها هذا الطراز ، وعلى طريقه هذه التى شقها سارت عجلة الأدب ألف عام ، وعبثا نحاول العثور على أثر لهده الخطة عند غير البديع ٠

---

(١) ٢٤ « بديع الزمان » لمارون عبود ٠

وكذلك ذهب مازن المبارك الذى يقول(٢) : فتح البديع باب فن جديد هو فن المقامة فى الأدب العربى ٠

هذا هو الرأى السائد فى نشأة المقامة ، ولكن الحصرى صاحب كتاب « زهر الآداب » يذهب فى كتابه(٣) الى أن البديع اقتبس فن المقامة من أحاديث ابن دريد (٢٢٣ ــ ٣٢١ هـ) ، ومعنى ذلك كما قال الدكتور زكى مبارك(٤) أن البديع ليس هو المبتكر لفن المقامة ، وان كان لــه فضل فى نشأتها ، وينفى مؤلف كتاب «بديع الزمان رائد القصة القصيرة» وهو مصطفى الشكعة(٥) أن تكون أحاديث ابن دريد ذات صلة بفن المقامة كما عرف عند البديع ٠

ويجعل آخرون البديع محتذيا حذ استاذه ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) فى رسائله الحوارية ٠

ويذكر آخرون ، ومن بينهم شوقى ضيف(٦) ، أن البديع اقتبس مقاماته من كتابات الجاحظ وقصصه فى البخلاء والحيوان والمحاسن والأضداد عن أهل الكدية ، ومع جواز ذلك فى المضمون ، فان شكل المقامة الفنى يبقى جديدا كل الجدة عند البديع : وهناك على أية حال فرق بين البذرة والثمرة فى أى عمل أدبى أو غير أدبى ٠

ويجعل بعض المستشرقين أساطير التوراة عند اليهود وقصة لقمان هما الملهمتان للبديع بفكرة المقامات ، ويذكر آخر أن قصص جحا فى الآداب الفارسية والعربية والتركية ذات أثر فى نشأة المقامة ، وهذا كله كلام يعوزه الدليل ولا تنهض به الحجة(٧) !

---

(٢) ص ١٦ « مجتمع الهمذانى من خلال مقاماته » ــ مازن مبارك ٠

(٣) ١ ٠ ٢٣٥ « زهر الآداب » ٠

(٤) « النثر الفنى » لزكى مبارك ٠

(٥) ص ٢٠٧ « بديع الزمان » الشكعة ٠

(٦) ٢٠ « المقامة » لشوقى ضيف ــ طبع دار المعارف ٠

(٧) راجع ١٤٦ « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى » عمؤلف ٠

ويذهب آخرون الى أن المقامة مقتبسة من أصل فارسى ، ولكن المنصفين من العرب والفرس ينفون أن تكون المقامات قد وجدت فى الأدب الفارسى قبل بديع الزمان ، اذ لم تعرف المقامة فى الأدب الفارسى الا بعد البديع بنحو قرن ونصف من الزمان ٠٠ فأول مقامات كتبت بالفارسية هى للقاضى حميد الدين البلخى الذى بدأ بكتابتها عام ٥٥١ هـ وتوفى بعد ذلك بسبع سنوات (٥٥٨ هـ/١١٦٤ م) كما يقول براون ، ويؤكد محمد تقى بهار(٨) أن المقامة من اختراع البديع ، وأن كل اختراع فى الأدب العربى كان له صداه فى الأدب الفارسى وأن حميد الدين قلد البديع والحريرى فى مقاماته ، ويذكر الأنورى اعجاب الفرس وافتتانهم بمقامات حميد الدين ٠

ان هذه القصة الحوارية القصيرة ، ذات المنهج الفنى الملتزم ، والصياغة الطريفة ، والصيغة الجديدة ، والفكرة الساسانية ، التى دعيت مقامة ، قد أنشأها بديع الزمان الهمذانى ، لتجابه مطالب الحياة الفنية والأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية المتجددة فى عصره ٠

- ٢ -

ولقد جعل بديع الزمان لمقاماته بطلا ساسانيا هو أبو الفتح الاسكندرى ، وهو الذى مثل كل أدوارها ، ونهض بجميع فصولها ، وقام بكل أحداثها ٠

وشخصية أبى الفتح - كما تبدو من خلال المقامات - شخصية رائعة حقا ، فهو بطل الموقف كله فى المقامة ، وهو - كما يصوره الهمذانى - عالم وأديب وشاعر ، وهو ناقد بليغ ، ومغامر محتال ماهر ، مشرد فى الآفاق ، تقسو عليه ظروف الحياة فلا يجد الا الكدية والاحتيال بكل أسلوب من أجل المال أو الطعام ٠ وهو الى ذلك كله مجرب حكيم خبير بالأيام وصروفها ، عركها وعركته ، يجوب الآفاق ويخطب فى الأندية ، يهز الناس بفصاحته وبلاغته ٠

---

(٨) « تاريخ تطور النثر الفارسى » - محمد تقى بهار ٠

وكنية أبى الفتـح لعـل البديع رمز بها الى فتوحات هـذا البطـل وانتصاراته فى مواقفـه العجيبة فى الكدية ٠

أما وصف الاسكندرى الذى لازمه فقـد يكون معززا لذلك المعنى على أنه نسبة الى الاسكندر ، فتكون فتوحات أبى الفتـح فى أموال النـاس شبيهة بفتوحات الاسكندر ٠ وقـد يناقض ذلك أن أبا الفتـح يكـرر فى مقاماته قـوله « اسكندرية دارى »(٩) ، نسبة الى الاسكندرية لا الى الاسكندر الأكبر المقـدونى (٣٥٦ - ٣٢٣ ق م) ٠٠ ويصح لنـا أن نجمع بين الأمرين ، فتكـون نسبته الى الاسكندرية مقصودا بهـا الرمز الى شبهه فى فتوحاته الساسانية بفتوحات الاسكندر التى تنتسب اليه مدينته ٠

ويقـودنا ذلك الى التساؤل : أية اسكندرية كان يعنى البديع ، وكان ينتسب اليها أبو الفتـح الساسانى ؟

فى المقـامة التاسعة الجرجانية يقـول أبو الفتح البطل متحـدثا عن نفسه : انى امرؤ من أهـل الاسكندرية من الثغور الأموية ٠ وفى المقامة التاسـعة والعشرين الحمدانية يقـول : من الثغـور الأموية والبـلاد الاسكندرية ٠ ويكرر أبو الفتح نسبته الى الاسكندرية فى مواضـع كثيرة أخـرى ٠

فاذا رجعنـا الى ياقـوت (١٠) وجـدناه يذكر أن الاسـكندر بنى ثلاث عشرة مدينـة سماها كلهـا باسمه ، ثم تغيرت أسماؤها بعـده ، فمنها : اسكندرية مصر ، والاسكندرية التى صار اسمها سمرقند ، والتى صارت مرو ، والتى سميت بعـد باسم بلخ ، واسكندرية الأندلس التى على النهر الأعظم - نهر اشبيلية - وهى التى رجحها الامام محمد عبده لوصف البديع لهـا بأنها من الثغور الأموية وقـد كانت الخـلافة الأموية تحكم الأندلس فى القرن الرابع الهجرى عصر البـديع ٠ الا أنى وجـدت

---

(٩) راجـع مثلا فى المقـامة الأربعين - العلمية - قـول البديع :

اسـكندرية دارى   لو قر فيها قرارى

(١٠) ٢٣٥/١ معجـم البلـدان ٠

رحالة عربيـا فى القرن الرابع – هـــو أبو دلف – يذكـــر مدينـــة المنصورة عاصمة السـند ، ويقـــول عنهـا : ان الخليفـــة الأموى مقيم بهـا(١١) ، فهل كانت هـذه المدينة قـديما تسمى الاسكندرية أيضـا ، ليصبح أمامنا احتمال جـديد آخر ، ويذكر باحث عراقى أن الاسكندرية بين بغـداد والحلة(١٢) ، ولكن ما صلتها اذن بالثغور الأموية ؟ ٠

ويذهب عبد الوهاب عـزام الى أن صحة الكلمة « الآموية » نسبة الى نهر آموى(١٣) – جيحون – وبذلك تكون الاسكندرية المقصودة هى مدينة الاسـكندرية على نهر آموى ٠

ومـع ذلك كلـه فلا نزال نسير فى بيداء سحيقة ٠

– ٣ –

ونسائل أنفسنا : من هـو أبو الفتـح الاسكندرى اذا ؟

١ – هنـاك رأى سائد أنه شخصية أسطورية خياليـة محضـــة ، كشخصية راوى المقامات عيسى بن هشام ، يقول الحريرى فى مقـدمة مقاماته : كلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف ٠ وهـذا ما رجحته منذ عشرين عاما فى كتـابى « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العبـــاسى الثانى »(١٤) ويؤكد ذلك المستشرق الفرنسى ايوار ، فيقول : وضع البديع شخصا خياليا ابتكره وسماه أبا الفتح ،وذهب بعض الباحثين الى أن عيسى ابن هشام راوية المقامات كان شيخا للبديع ، ومنهم أبو شجاع شيرويه (٥٠٩ هـ) مؤلف تاريخ همـذان ، وينقـل ذلك عنه ياقـــوت فى معجم الأدباء ، ولعـل ذلك وهم ناشىء من قـول البديع فى مطلع كل مقامة من

---

(١١) هـذا النص منقول عن معجم البلدان راجع ٤٠٩/٥ معجم البلدان ٠

(١٢) يعـد رسالة ماجستير عن مقامات الحريرى ، واسمه طارق العوسج ، وهـو مدرس بمكة المـكرمة حاليـا ٠

(١٣) ٢٣٤ بديع الزمان للشكعة نقلا عن محاضرات عزام فى كلية الآداب عـام ١٩٤٤ م ٠

(١٤) ص ١٤٧ الكتـاب المذكـور ٠

مقاماته : حـدثنا عيسى بن هشام . ولـو ذهبنا الى أن أبا الفتح هـو الذى كان أستاذا للبديع لكان ذلك أكثر صـلة بالبحث ، وأكثر انطباقا على الموضــــوع .

وممن ذهب الى أن هاتين الشخصيتين خياليتان مؤلف كتاب « بديع الزمان » الدكتور الشكعة الذى يقـول : حاولنا أن نجـد لبطلى المقامات صـدى تاريخيا فلم نعثر لهما على أثر والغالب انهما من ابتكار خيـــال البـديع نفســه(١٥) .

٢ - وهناك رأى جـديد هـو أن شخصيات مقامات البديع كانت لأشخاص وجـدوا بالفعـل ويذهب الى ذلك بعض المستشرقين ، الا انهم لم يستطيعوا تحـديد هــؤلاء الأشخاص المجهــولين ولا الكشــف عن شـخصياتهم التاريخيـة .

وأنا معهم فى ذلك . ولكنى أخطو خطوة جـديدة من أجـل الكشف عن شخصية أبى الفتـح بطـل المقامات البديعية .

ويذهب باحث عراقى(١٦) سبق الاشارة اليه الى أن أبا الفتح هـو البديع نفسه ، ومن قبل قلت ذلك فى كتابى « الحياة الأدبيــة فى الأندلس والعصر العباسى الثانى »(١٧) حيث ذكرت أنه قـد يكون فى حياة أبى الفتح شىء من صفات البديع نفسه ، وشىء من أخلاقه . ولكنى أخالف ذلك اليوم ، وستبدو الحقيقة واضحة وكاملة بعـد قليل .

ويذهب باحث آخر(١٨) الى أن الكدية أو الساسانية التى كانت صناعة أبى الفتح « نجـد من أعلامها فى عصر البديع من يشبه أبا الفتح من وجوه كثيرة : كابن الحجاج (ت ٣٩١ هـ) ، وابن سكرة (ت ٣٨٥ هـ)

---

(١٥) بديع الزمان ص ٢٣٢ .

(١٦) هـو طارق عبد الوهاب العوسج يحضر رسالة دكتوراه عن مقامات الحـريرى .

(١٧) ص ١٥٧ و ١٥٩ الكتــاب المذكــور .

(١٨) ص ٢٣٤ « الأدب فى ظـل بنى بويه » للزهيرى - طبع مصر ١٩٤٩ .

وأبى الورد ، ومن يشبهه من بعض الوجـوه كابى حيان التوحيدى ، بل البديع نفسه ، ومن يشبهه كل الشبه كابى دلف والأحنف العكبرى » ٠٠ ومجمل هـذا الرأى أن أشباه أبى الفتـح الاسكندرى كثيرون فى عصر البديع ، وأن أقربهم شبها به هـو أبو دلـف أو الأحنف ٠ وهـذا الرأى لا يأتى لنا بجـديد ولا بأمر مؤكد فى البحث على اية حال ، فلم يجزم هذا الباحث برأى معين لـه ٠

٣ ـ ورأيى الذى اذهب اليه اليوم هـو أن أبا الفتح انمـا هـو شخصية تاريخية معروفة فى عصر البـديع ، وهـو ابو دلـف الخزرجى وحـده ٠

وهـذا الرأى لا يسبقنى فيـه باحث ، وبه ينفتح الباب امامنا لفهم كثير من حقـائق الأدب فى القرن الرابع ٠٠ ودليلنا عليه هـو ما قالـه الثعالبى فى « يتيمـة الدهـر »(١٩) قال :

أنشدنى بديع الزمان لأبى دلف ، ونسبه فى بعض المقامات الى أبى الفتـح الاسـكندرى :

ويحـك هـذا الزمـان زور فـلا يغـرنك الغـرور(٢٠)

لا تلتزم حالـة ولكـن دن بالليـالى كمـا تـدور

ومن هـذا النص نعرف الحقـائق الآتية :

١ ـ انشد البديع الثعالبى شـعرا لأبى دلف ٠

٢ ـ وهـذا الشعر نفسه نسبه البديع فى مقاماته الى أبى الفتح ، فتكون النتيجة هى أن أبا الفتـح هـو أبو دلف نفسه بإقرار البديع ٠

---

(١٩) ٣ : ٢٥٤ اليتيمـة ٠

(٢٠) هـذا الشعر فى المقامة القريضية احـدى مقامات البديع ٠

٣ - كان البديع راوية لشعر ابى دلف ، ويبدو لى ان البديع كان ينزل أبا دلف من نفسه منزلة الأستاذ والمعلم ٠

واذن يكون أمامنا رأى جديد نجزم به ، هو أن البديع حين كتب مقاماته اختار أبا دلف أستاذه وصديقه ومعاصره بطلا للمقامات،وكنى عنه بأبى الفتح ، وكان أبو دلف اروع نموذج ساسانى يصلح بطلا المقامات ، لأن حياته وشخصيته وتجاربه مطابقة تمام المطابقة للنموذج الذى صوره البديع فى المقامات فى شخص أبى الفتح الاسكندرى ، ولأن شهرة وتجارب أبى دلف كانت تصلح معينا يستقى منه البديع كل ما يريد أن يصور به أبا الفتح وذلك ما قد كان ٠

بل انى اضيف الى ذلك أن البديع الهمذانى حين سمع قصص ابى دلف الشيخ الحكيم المجرب عن رحلاته وتطوافه فى البلاد ، واستمع الى فكاهات هذا الشيخ وسمره فى مجالس الملوك والأمراء والوزراء رأى أن هذه الصورة الفنية تصلح أساسا لفن جديد ابتكره وسماه « المقامة » ، فكان أبو دلف هو الملهم للبديع الشاب الذكى بابتكار فن المقامة فى الأدب ، العربى ، فى القرن الرابع ، وفى عصر أبى دلف ٠

ملحق بالكتاب :

ينبع موطن أبى دلف

ينبع من اقليم الحجاز ، تطل على البحر الأحمر ويقال لها : الينبع ، والينبوع أيضا ، وهما تحريف للاسم الأول ٠

وهى الآن امارة تضم مقر الامارة ينبع البحر ، وينبع النخل الزراعية بقراها العديدة ٠

وذكر ياقوت عن الشريف أبى سلمة بن عياش الينبعى أنه قال : عددت بها مائة وسبعين عينا ٠

ومن أشهر جبال ينبع رضوى (يرتفع عن سطح البحر بنحو ١٨١٤ مترا ، ووادى ينبع مشهور ، وبجواره وادى العيص

وقد وقعت غزوة العشيرة فى اقليم ينبع ، وقد غزا رسول الله بنفسه هذه الغزوة ، وهى فى بطن وادى ينبع ٠ وفى ينبع « عين البركة » و « سويقة » من منازل الطالبيين ٠

وكان الامام على بن أبى طالب يقيم فى ينبع قبل توليه الخلافة ٠ وكان بها معجبا ، ويروى المؤرخون عنه أنه نظر الى جبالها فقال : « لقد وضعت على نقب من الماء عظيم » ٠ ثم استوطن بنوه وأحفاده تلك الجهات وانتشروا وكثروا فيها ، وملكوا عيون ينبع ومزارعها ٠ وازدهرت ينبع فيما بعد حتى فاقت المدينة المنورة ٠ ووصفها المقدسى فى القرن الرابع الهجرى قائلا:«ينبع كبيرة جليلة،حصينة الجدارى،غزيرة الماء، أعمر من يثرب،وأكثر نخيلا،حسنة الحصن،حارة السوق»٠وفى القرن السادس الهجرى قامت فيها للحسنيين دولة كان من أشهر رجالها الشريف « قتادة » جد ولاة مكة من الأشراف ٠ وكان قتادة وذووه يسكنون فى « العلقمية » من عيون ينبع المعروفة الآن ٠ وقد استمر الملك فى آل قتادة يتوارثونه حقبة من الزمان واتخذوا من وادى ينبع حصنا لهم ٠ ثم

أصبحت ينبع احـدى المحطات الرئيسية التى يمر بهـا الحجاج القادمون من مصر والشام برا أو بحـــرا · وكان الحجاج وأهـل ركب المحمـــل يستبشرون باقترابهم من « أم القرى » عند وصولهم الى ينبع · فيقيمون فيها ثلاثة أيام أو أربعـة يريحون فيها أنفسهم من عناء السفر حيث النخل الكثير والعيون الجارية والينابيع العـذبة المتفجرة · وتقام فيها ســـوق كبيرة يجـد فيها الحاج كل ما يلزمه من أصناف الطعام من لحـوم وسمن وعسل وتمر وخضار ، ولهـذا كان مرور الحجاج بها يعتبر من المواســم المشـــهودة ·

وفى بداية القرن الثانى عشر الهجرى تعرضت منطقة ينبع للحروب والفتن فحلت بهـا وبأهلها الكوارث والأرزاء ممـــا صرف سكانها عن العناية بالزراعة ، قـوام تلك المنطقة · وفى أول العهد السعودى بعـد استتباب الأمن وانتشار العـدل ، نشطت حركة الزراعية فانتعشت البلاد بصفة عامة · الا أن هـذه الحالة لم تدم طويلا ، اذ نضبت فيها عيـون كثيرة أدت الى ضعف حركة الزراعـة وبالتالى الى هجرة الكثيرين من أهلها الى جـدة ومكة المكرمة والمدينة المنورة · وقـد تنبهت الدولة لهـذا الأمر فأعـدت لهـا فى السنوات الأخيرة مشاريع زراعية كفيلة برفـع مستواها الزراعى واستقرار سكانها ·

أما ينبـع البحر فلم يكـــن لهـا شأن يذكر عنـــد المؤرخين فى العصور الاسلامية قبل القرن السابع الهجرى ، مـع أن بعض المستشرقين يرى أنها كانت معروفة قبـل الاسلام ، بل قبـل ميلاد المسيح عليه السلام، وفى صـدر الاســلام اتخـذ المسـلمون الأولـون لتجـاراتهم الـكبيرة من « الجار » ميناء ، عندما كانت لهم علاقات تجارية قـوية مـع بلاد الحبشة · وقـد اكتسب هـذا الميناء شهرة كبيرة حتى ان البحر الأحمر كان يعرف ببحـر الجار · ويقـع الجار فى المكان المعروف الآن باسـم « الرايس » الى الجنوب من ميناء ينبع ، بينما يرى بعض الباحثين أنه يقـع فى مكان ميناء « البريكة » الذى لا يزال يستعمل على نطـــاق محـدود · وفى أواخر القرن السادس الهجرى بدأ أمر الجار يضمحل وأخـذ ميناء ينبـع يقـوى ، حينمـا جعله الأيوبيون المينـــاء الرئيسى

للمـدينة المنورة وأقاموا فيـه بعض الانشاءات • وفى عهد الجراكسة، ، حكام مصر والشام والحرمين ، ارتفع شأن ميناء ينبع لاستقباله الكثير من السفن التى تحمل الجرايات المقـررة من حبـوب للمـدينة المنورة ، بالاضافة الى لوازم الحرم الشريف وما يحتاج اليه ركب المحمل • وفى آخر عهد الجراكسة عمت الفوضى فى الحجاز مما أدى الى انقطاع سيل الحجاج مدة ، فكان اثر ذلك سيئا على الشقيقتين ينبع النخـل وينبع البحر • ثم عاد الميناء الى سابق عهـده ابان حكم السلطان « سليمان القانونى » الذى أمر بانشاء مخازن للحبوب ، وبتشييد جامع كبير فى البلـدة ، وباصلاح الميناء وتوسيعه • ثم تضعضع شأن اقليم ينبع عامة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين بضعف الدولة العثمانية، ولم تتذوق طعم الازدهار ولم تهنأ بالاستقرار بعـد ذلك الا فى العهـد السعودى بعـد أن استتب الحكم ، فادخل عليها من الاصلاحات والمشاريع ما جعلها بحـق مفتاح المدينة المنورة والميناء الثانى على ساحل البحـر الأحمـر الشرقى بعـد ميناء جـدة •

وينتمى معظم سكان منطقة ينبع النخـل الى قبيلة جهينة ، والبعض الى قبيلة حرب • أما أكثرية سكان مدينة ينبع البحر فهم من الأسر العربية التى انتقلت من صعيد مصر واستوطنت هـذه المدينة • هـذا وقـد نزحت اليها مؤخرا بعض الأسر من الأشراف ونشطت ميناؤها • ويعمـل معظم أهالى ينبع النخـل فى الزراعـة وتربية النحـل والمواشى • أما سكان مدينة ينبع البحر فيشتغلون بالتجارة وصيد الأسماك وصـناعة القـوارب الشراعية وفى الوظائف الحكومية المختلفة • ويضم وادى ينبع أربعـا وعشرين قرية صغيرة متقاربة ، تقـوم كل منها على عين ، وهى : الجابرية ، التى تشتهر بسوق يوم الجمعة ، وهى من أقـوى العيون فى المنطقة ، والسكوبية ، والمزرعـة ، وعين عجلان ، وعين على الحربية ، وعين على الجهنية ، والفجة ، وخيف فاضل ، والسويق ، المشهورة بسوق يوم الاثنين النشطة ، اذ يجلب اليها أهـل البادية من المناطق المجاورة المواشى والسمن والعسل والفحم الخشبى والخضار والفـواكه ، والمعروف أن السوق كانت حتى وقت قريب مقر الامارة فى ينبع النخـل ثم أصبحت تابعـة لامارة ينبـع البحر •••

أبو دلــف ٠٠ والبــديع

لا ريب أن أبا دلـف هـذا الشيخ المجرب الحكيم ، المتعـدد جوانب الشخصية ٠٠ كان ينظـر الى بديع الزمان الشاب المتوقـد ذكاء ونبـوغا وعبقرية ٠٠ نظرة الأستاذ الى تلميذه ٠

وكان البديع يضع أبا دلف موضـع الأستاذية ، ويحـله من نفسـه منزلة رفيعـة ، ويعجب لروحـه الفكهة وثقافته الواسعة ، وظرفه الذى لا حـد لـه ، والى حلو مجلسه ، وروائع نوادره وطرائفه ، بكل تقـدير وحب واعجاب٠٠٠الشعور نفسه متبادل بين الأستاذ والتلميذ،بين جيل وجيل ، بين عبقرية وعبقرية ٠

وكان البديع ينصت الانصات العميق لرحلات أبى دلف وصـــور مشاهده فى هـذه الرحلات ، وكان كل ذلك يقـع فى نفسه موقع الاعجاب والاستغراب معـا ٠

ومن ثم فقـد اتخـذ البديع أستاذه أبا دلف نمـوذجا أدبيـا رفيعـا للساساني العجيب لظـريف العبقرى الأديب ، وسماه فى مقاماته بأبى الفتـح الاسكندرى ، ورسم لـه صورة رائعـة من الذكاء والمعرفة والبلاغة والقـدرة على امتلاك عقـول الجماهير وأذواقهم معـا ٠

وجعـل البديع أبا الفتـح بطلا أو قـل (مهرجا) كبيرا ، لا تفوته فرصـة ، ولا تنـد عنه شاردة ، ولا تغيب عن ذهنه اللمـاح خاطرة ، وجعـله محتالا ظريفـا ، وقصيصا بارعا ، وبليغـا يمـلك ألبـاب النـاس وعقـولهم وأذواقهم جميعا ٠

وبلغ البـديع فى تصـويره لأبى دلف مبـلغ الاتقـان والجـــودة والروعـة معـا ٠

وكان أبو الفتح - كما صوره البديع - خبيرا باقتناص الأموال ،

وأستخراج الدراهم والدنانير ، من جيــوب الأغنياء والأثرياء ، بل ومن الفقراء أيضا ، ببلاغته وبيــانه الساحر الغريب ٠

ورسم ابا دلف ، أو قــل أبا الفتــح ، فى صورة لا يستطيع احــد أن يرسمها ، أو أن يصــور بطله فى هــذا النموذج البديع المذهل ٠

وكان اعجاب الناس وحفاوتهم بهــذا النموذج البطل فريدا ، فقرأوا مقــامات البــديع ، وهم شــبه مسحورين ، ورددوها وحفظــوها ، وهم جــد ميهــورين ٠

ومن أين لبليغ أن يكتب مثــــل هــذه الروائع الفــريدة ، والشوارد الجــديدة ، ومن اين لقلم أن يخــرج فرائده فى صورة دونهــا السحر ، وان كانت فى ثوب النثر والشعر ؟

ولا يرجع هــذا العجب العجاب الى ظرف البديع وحــده ، بل الى جلال النموذج وعظمته ايضــا ، فابو دلف هــذا النموذج العبقرى للأديب المحترف الساسانى ، هو هو فى عظمة الصورة المرسومة ذاتها ٠٠ عبقرية الصورة تماثلها عبقرية المصور (بكسر الواو) وعبقرية المصور (بفتــح الواو) معــا ٠

ومن ثم خلــد هــذا النموذج وتتوسى اصــله ، وبقى النمــــوذج مجهول الهوية ، يتخيل المطالعون له أنه رسم أسطورى لشخص اسطورى٠

ونحن نعجب لمعاصرى ابى دلف والبديع ، وللأجيــال التى جاءت من بعــدهم : كيف غابت عنهم حقيقة هــذا النموذج ، وتناسته ثم نسيته تمــاما خــلال الف عــام ٠

والثعالبى فى ذكائه أعطى لنــا المفتاح الذى فتحنا به باب هــــذا الكنز المجهول ، فرأيناه ورآه النــاس عجبا ٠

وليس فى وسعنا الا أن نحمد الله أن اتضحت الصورة ، وأن كشفنا

عن أصــل هــذه الصورة الوحيدة الفريدة ، واذ كان يفرح الانسان بكنز مدفون يهتدى اليــه فى باطن الأرض ، فقــد كان فرحى كبيرا حقــا بأن اهتديت الى الكشف عن أمور عجيبة كانت محجبة فى ضمير الغيب ·

لقــد كشــفت عن شـــخصية أبى الفتــح ، وقلت : أنه هــو هــو ابو دلف الخزرجى الينبعى ، مسعر بن المهلهــل ·

وكشفت فى الوقت نفسه عن شخصية ابى دلف وحيــاته بالتفصيل ، بعــد أن غابت صــورته ، وغام شــبحه فى ظــلال النسيان ·

وكشفت عن أبى دلف وأنه هــو مسعر بن المهلهل ، هــذا الرحــالة العجيب المتعــدد الثقافات والجــوانب ·

قــل عنه : أنه اديب ·

أو قل عنه : انه شــاعر ·

او قــل عنه : أنه مؤلــف ·

او قــل عنه : انه رحالة جــوالة فى الآفاق ·

أو قــل عنه : طبيب حاذق بارع ·

او قــل عنه : انه جيــولوجى متميز ·

أو قــل عنه : انه سفير وسياسى رفيع المنزلة فى عصره ·

او قــل عنه : انه نديم المــلوك والأمراء والوزراء ·

قــل عنه : ذلك أو قــل عنه : أكثر من ذلك ، فهــو كل ذلك جميعــا أو يزيد ·

أبو دلف الحــكيم وأبو دلف الأديب وأبو دلف الظريف ، وأبو دلف

السياسى ، صــورة لعبقرية كبيرة عاشت فى القرن الرابع الهجرى ٠

وانا اقــول : ان القـــرن الرابع الهجـــرى هـــو عصر المتنبى وأبى دلـف ٠

انهما صـــورتان للعصر ، ولم ينجب العصر أرفع منهما قدرا فى المنزلة الأدبيــة ٠

هــو عصر المتنبى وأبى دلـف حقـا ٠

انى لأحيى هــذين العلمين الكبيرين الخالــدين ٠٠

ومن حظى أن أخرج هــذا الكتـاب عن أبى دلف ، وأن يصــدر لى ولصــديقى الأديب الكبير د٠ عبـد العــزيز شرف شرح جـديد لديوان المتنبى ٠

وبالله التوفيـــق ٠٠

خاتمـــة الكتـــاب

وبعـد ، فهـذا أبو دلف الخزرجى بطل مقامات البديع ، رحالة من أعظم الرحالة الجغرافيين المسلمين على امتداد التاريخ وبخاصة فى القـرن الرابـع ٠

وعالم وطبيب وكيمائى وجيولوجى من الطراز الأول فى عصره ٠

ومنادم فى الذروة ، جلس فى مجالس المـلوك ينادمهم ، وينـادم الوزراء والأمراء ، وينال عندهم الحظوة والمكانة الرفيعة ٠

وشاعر رفيع المنزلة فى عصره فى الشعر ، وعلم من اعلام الشعر الساسانى الذى كان لـه طرافته وروعته فى عصره ٠

ونموذج فنى رفيع للساسانية التى تتميز بالظرف وعلو الـذوق وجمال الفكاهة ، مما حببه الى المـلوك وقربه الى الوزراء ٠

وشخصية فـذة اهتزت دوائر المشرق بدراســة افكارها ونتـائج الرحلات التى قام بهـا فى شتى أنحـاء آسيا ٠

ولقـد كان بديع الزمان الهمـذانى وثيق الصلة أبى دلف ، وواقفا على أخبـاره ، وراوية لشعره ، وفى اليتيمـــة ما يدل على ذلك(١) ٠ وكانت شخصية أبى دلف ملء سمع البديع وبصره ، ورحلاته وتطوافه فى الأرض موضع عجبه واستطرافه،كما كانت شيخوخة أبى دلف وتجاربه وحكمته وخبرته بالحياة ، وتنقله بين الغنى والفقر ، وحرفته الساسانية وهـو علم فيها ٠٠ كان ذلك كله موضـع تأمل البديع وتعجبه ، لذلك فان البديع حين كتب مقاماته اتخـذ من أبى دلف وحيـاته وشخصيته بطـلا للمقامات التى أبدعها ، ورمز اليـه بأسم أبى الفتح الاسكندرى ٠

---

(١) ٣ : ٣٢٣ اليتيمـــة ٠

وتقــول تاكيدا لذلك : ان جميع ما صــور به البديع بطــل مقاماته ابا الفتــح الاسكندرى ينطبق على أبى دلف تمام الانطباق ·

فهو خطيب وبليغ وشاعر ، وهــو جوالة فى الآفاق ، وهــو يحترف الساسانية تظرفا ودعابة وحلو فكاهة ، والعجب من قعــود همته مــع حسن آلته ، وهو كهل قــد غبر اخيرا فى وجهه الفقر ، وهو كما يقــول البديع فى المقامة الصيمرية على لسان أبى الفتح :

« خرجت اســـيح كانى المسيح ، فجلت خراســـان الى كرمان ، وسجستان ، وجيلان ، الى طبرستان ، والى عمان ، الى السند والهند ، والنــوبة والنبط ، واليمن ، والحجاز والطــائف ، فجمعت من النــوادر والأخبار والأسحار والفوائد ·· ما قصر عنه فتيا الشعبى » ··· وهــذا هــو ابو الفتح فى أدق صورة ، وفى اوضح مثالاته ··

والله ولى التوفيــق ··

المؤلــف

المصـــادر والمراجـــع

رجعنا فى هـذا البحث الى كثير من المصادر ، التى نكتفى هنـا بذكر بعضها :

١ - يتيمة الدهر للثعالبى - بتحقيق محمد محى الدين عبد الحميد - ٤ أجـزاء ٠

٢ - معجم البلـدان لياقوت طبعة مصر ١٣٢٣ هـ ٠

٣ - مروج الذهـــب للمسعودى - بتحقيـــق محمـــد محيى الدين عبـد الحميـد ٠

٤ - أخبـار الزمان للمسعودى - طبعة بيروت ٠

٥ - التنبيه والاشراف للمسعودى ٠

٦ - مقـامات بديع الزمان ٠

٧ - مقـامات الحـريرى ٠

٨ - عجائب المخلوقات للقزوينى بتحقيق الصيرفى والأبيارى ٠

٩ - آثار البـلاد للقزوينى - دار صـادر ١٩٦٩ ٠

١٠ - الجماهر فى معرفة الجواهر - والآثار الباقية : للبيرونى ٠

١١ - تحقيق ما للهند من مقـولة للبيرونى ٠

١٢ - مختصر كتـاب البلـدان لابن الفقيه ٠

١٣ - المسالك والممـالك للاصطخرى - طبع القاهرة ١٩٩١ م ٠

١٤ – معجم الأدباء لياقـوت – نشر فريد رفاعى .

١٥ – ديوان الصـاحب .

١٦ – رسـائل الصـاحب .

١٧ – رسـائل البـديع .

١٨ – رسـائل الصـابى .

١٩ – البخلاء للجاحظ – بتحقيق الجارم .

٢٠ – الحيوان للجاحظ – بتحقيق عبد السلام هارون .

٢١ – البيان والتبيين للجاحظ بتحقيق هارون .

٢٢ – المحاسن والأضـداد للجاحظ .

٢٣ – المحاسن والمساوىء للبيهقى .

٢٤ – الخـراج لقـدامة .

٢٥ – احسن التقاسـيم للمقـدسى .

٢٦ – العقد الفريد لابن عبد ربه – تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين .

٢٧ – الأغانى لأبى الفـرج – طبـع دار الكتب .

٢٨ – عيـون الأخبـار لابن قتيبة – طبعـة دار الكتب .

٢٩ – الأخبـار الطوال للدينورى – مصر ١٣٣٠ هـ .

٣٠ – الأمالى للقـالى – طبعـة دار الكتب المصرية .

٣١ – الامتاع والمؤانسة للتوحيدى – طبعة مكتبة الحياة بيروت .

٣٢ - رسائل الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون ٠

٣٣ - تاريخ الاسلام للذهبى « طبعة مصر » ستة أجزاء ٠

٣٤ - تاريخ بغداد للبغدادى - ١٤ جزءا - طبعة القدسى ٠

٣٥ - تاريخ جرجان - للسهمى - حيدر آباد ١٩٥٠ ٠

٣٦ - تاريخ أصبهان لأبى نعيم - ليدن ١٩٣١ ٠

٣٧ - تاريخ الطبرى - طبع دار المعارف بمصر ٠

٣٨ - الكامل للمبرد - طبعة المكتبة التجارية بالقاهرة ٠

٣٩ - فحول الشعراء للأصمعى بتحقيق المؤلف ٠

٤٠ - الصناعتين للعسكرى - طبعة عيسى الحلبى ٠

٤١ - معجم ما استعجم للبكرى - ٤ أجزاء - القاهرة ١٩٤١ ٠

٤٢ - تجارب الأمم لمسكويه ٠

٤٣ - البحوث الأدبية للمؤلف - طبع دار الكتاب اللبنانى ٠

٤٤ - الفهرست لابن النديم - طبعة مصر ٠

٤٥ - المكتبة الجغرافية - طبعة ليدن - ٨ مجلدات ٠

٤٦ - مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده - جزءان ٠

٤٧ - كشف الظنون لحاجى خليفة - طبعة المعارف التركية جزءان ٠

٤٨ - نهاية الأرب للنويرى - طبع دار الكتب المصرية ٠

٤٩ - صبح الأعشى للقلقشندى - طبع دار الكتب المصرية ٠

٥٠ - النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى - دار الكتب •

٥١ - دائرة المعـارف الاسلامية - الطبعـة الانجليزية الجـديدة فى الحـديث عن أبى دلف - والترجمـة العربية - طبـع مصر - فى مواضـع كثيرة تتصل بالبحث •

٥٢ - مقـدمة ابن خلـدون - المكتبة التجارية •

٥٣ - الجغرافيون العرب لصبرى محمد حسن - طبـع النجف •

٥٤ - الجغرافيا والرحلات عند العرب - نقـولا زيادة •

٥٥ - اعلام التاريخ والجغرافيا - المنجـد - طبـع بيروت •

٥٦ - شمس العرب تسطع على الغرب لهـونكة - طبـع بيروت •

٥٧ - العرب والملاحة فى المحيط الهندى - حـورانى •

٥٨ - حـديث السندباد القـديم - حسين فـوزى •

٥٩ - ابن فارس للأستاذ هـلال ناجى - بغـداد •

٦٠ - المجـلة الجغرافيـة - مصر •

٦١ - تاريخ التمـدن الاسـلامى لزيدان •

٦٢ - الرواد نشر المقتطف •

٦٣ - الرحالـة العرب - نقـولا زيادة •

٦٤ - الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى - زكى محمد حسن •

٦٥ - الرحلات - دار المعـارف - بقلم د• شـوقى ضيف •

٦٦ - الجغرافيا عند العرب : يسن الحمـوى •

٦٧ - تاريخ الأدب الجغرافى العربى - كراتشوفسكى - نشر الجامعة العربية ٠

٦٨ - جهود المسلمين فى الجغرافيا - نفيس أحمد - القاهرة ٠

٦٩ - الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى - المؤلف ٠

٧٠ - ابن المعتز - المؤلف ١٠٥٨ القاهرة ٠

٧١ - أبو عثمان الجاحظ - المؤلف ١٩٦٣ القاهرة ٠

٧٢ - مجتمع الهمذانى من خلال مقاماته مازن المبارك ٠

٧٣ - بلاد ينبع للعلامة حمد الجاسر - دار اليمامة بالرياض ٠

٧٤ - بديع الزمان للشكعة - نشر دار الفكر العربى بالقاهرة ٠

٧٥ - بديع الزمان لمارون عبود ٠

٧٦ - الكامل لابن الأثير - المنيرية ١٣٥٧ هـ ٠

٧٧ - تاريخ اليعقوبى - بيروت - دار صادر ١٩٦٠ ٠

٧٨ - المقامات لشوقى ضيف ٠

٧٩ - الحياة الأدبية فى العصر العباسى - المؤلف ٠

٨٠ - تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٠

٨١ - تاريخ آداب اللغة العربية - لزيدان ٠

٨٢ - تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ٠

٨٣ - ديوان صفى الدين الحلى ٠

٨٤ - ديوان الشريف الرضى ٠

٨٥ - الرســالة الثانية لأبى دلف ٠

٨٦ - الأعــلام للزركلى - القــاهرة - ١٩٥٧ ٠

٨٧ - تاريخ خليفة بن خيــاط - النجف ١٩٦٧ ٠

٨٨ - وفيــات الأعيان لابن خلكان - ٣ أجزاء ٠

٨٩ - مجلة قافلة الزيت عــدد المحرم ١٣٩١ هـ - مارس ١٩٧١ - مقال عــن ينبــع ٠

الى غير ذلك من المراجــع التى أشرنا اليهــا فى هامش الكتــاب والى غير ذلك من المراجــع التى رجعنا اليها ولم نستفد منها كثيرا فى كتــابة هــذا البحــث ٠

وبالله التوفيـــق ٠٠

فهرســـت الكتـــاب

الموضـــوع	الصفحة

صـدر عن مكتبـة الأنجـلو المصرية

١ ـ مدارس الشعر الحـديث ـ د٠ محمد عبد المنعم خفاجى ـ ١٩٩٢ ٠

٢ ـ صور من الأدب الحـديث ـ ٤ أجزاء ـ للمؤلف نفسه ـ ١٩٥٥ ٠

٣ ـ روائع الشعر العربى بين الأصـالة والتجـديد ـ للمؤلف نفسه ـ ١٩٨٧ ٠

٤ ـ كيف تكتب بحثا جامعيا ؟ ـ للدكتورين عبد العزيز شرف وخفاجى ـ ١٩٨٦ ٠

٥ ـ النحـو لرجال الاعـلام ـ للدكتورين عبد العزيز شرف وخفاجى ـ ١٩٨٨ ٠

٦ ـ الفـن الأدبى ـ للناقـد الأسـتاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتى ـ ١٩٦٠ ٠

٧ ـ العقـاد صحفيا وأديبـا للدكتورين شرف وخفاجى ـ ١٩٩٠ ٠

٨ ـ موقف النقـاد من الشـعر الجـاهلى : محمـد عبد المنعم خفاجى ـ ١٩٩١ ٠

صـدر حـديثا للمؤلـف

مدارس النقـد الأدبى الحـديث

رقم الايداع بدار الكتب ١٥٣٤ لسنة ١٩٩٦
الترقيم الدولى 7 - 1435 - 05 - 977

مطبعـة
أبنـاء وهبـة حسـان
٢٤١ (أ) ش الجيش ـ القـاهرة
ت : ٩٢٥٥٤٠